جامعة مولاي إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس



التقاطات من التاريخ العثماني والمغربي:

رؤى تاريخية وقضايا فكرية

أعمال مهداة إلى روح الفقيد
الأستاذ قدور بوزياني

مكناس في 17 - 18 فبراير 2005

سلسلة الندوات
رقم 17
2006

جامعة مولاي إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس



التقاطات من التاريخ العثماني والمغربي:
رؤى تاريخية وقضايا فكرية

أعمال مهداة إلى روح الفقيد
الأستاذ قدور بوزياني
مكناس في 17-18 فبراير 2005

المدير:
د. محمد الرفاص
نائب المدير:
د. عبد الله ملكي

سلسلة الندوات
رقم 17
2006

العنوان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص.ب 11202 الزيتون، مكناس، المغرب
الهاتف: 035537012 . / الفاكس: 035537252

الـكـتـاب : سـلـسـلـة الـنـدوات

التقاطات من التاريخ العثماني والمغربي :

رؤى تاريخية وقضايا فكرية

الـنـشـر : جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس

الـطـبـع : دار أبي رقراق للطباعة والنشر

الـطـبـعـة الأولى : 2006

رقـم الإيداع القانوني

2006/1830

10، شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط

الـهـاتـف : 83 75 20 037 - الفاكس : 89 75 20 037

جامعة مولاي إسماعيل
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بمكناس

شعبة التاريخ

وحدة البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي

تنسيق: د. ابراهيم القادري بوتشيش

اللجنة المنظمة

الأستاذ ابراهيم القادري بوتشيش

الأستاذ محمد تضغوت

الأستاذ جمال حيمر

الأستاذ عبد الفاضل الصافي

الأستاذ أحمد محمودي

فهرست الأبحاث

وقائع الجلسة الافتتاحية :

يوم 17 فبراير 2005

- الكلمة التقديمية لحفل التكريم / الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش
- كلمة السيد رئيس جامعة مولاي إسماعيل / الأستاذ عبد اللطيف بن شريفة
- كلمة السيد عميد كلية الآداب / الأستاذ محمد الرفاس
- كلمة اللجنة المنظمة / الأستاذ محمد تضغوت

كلمة تقديم حفل التكريم : ألقاها الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش:

بسم الله الرحمان الرحيم،

السيد رئيس الجامعة المحترم، السيد عميد كلية الآداب المحترم، السادة الأساتذة الأجلاء، الطلبة الأعزاء،،،،

باسمكم جميعا، يسعدنا أن نبدأ هذه الجلسة الافتتاحية لأشغال اليومين الدراسيين المخصصين لتكريم الفقيد العزيز الأستاذ قدور بوزياني أسدل الله عليه ثوم الرحمة والغفران، هذا الأستاذ الذي أسدى خدمات جليلة للشعبة والكلية، قبل أن تختطفه يد المنون ، وهو لا يزال في زهرة شبابه.

يتشرف هذا الملتقى العلمي غاية الشرف بحضور رئيس جامعة مولاي إسماعيل ، والسيد عميد كلية الآداب، إلى جانب هذه الصفوة من الأساتذة العلماء الأجلاء، وهؤلاء الطلبة المتعطشين للنهل من حياض المعرفة. وأعتقد أن هذا الملتقى الذي جمع ما بين مكونات الجامعة يحمل مغزى عميقا ينبعث من قاعدة ثابتة تنطق ولسان حالها يقول أننا لا ننسى ولن ننسى أبدا الأساتذة الذين تركونا إلى دار البقاء، إنها بعبارة أخرى لمسة وفاء ، وعربون صدق وإخلاص، إلى من ودعنا دون إشعار، وها نحن نكتب بمداد الوفاء ألف عبارة تعكس الحب السرمدي في هذه اللحظة المعبرة، المليئة بالدلالات ...

دون أن أطيل الغوص في هذه الدوامة من المشاعر الجياشة، أحيل الكلمة إلى السادة الأساتذة، مبتدءا بالسيد رئيس جامعة المولى إسماعيل، فإليه الكلمة مشكورا.

كلمة السيد رئيس جامعة مولاي إسماعيل :

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،،،،

زميلي الأستاذ العميد المحترم، السيدات والسادة الأساتذة المحترمين، أعزائي الطلبة، أيها الحضور الكريم، أود في البداية أن أعبر لكم جميعا، وبخاصة للجنة المنظمة لهذا اللقاء العلمي ذو المغزى العميق، عن سروري وسعادتي واعتزازي بدعوتهم لي للمشاركة في حفل انطلاق أعماله. ولئن كنت بصفتي رئيس للجامعة أرى في الأنشطة العلمية من هذا المستوى المتميز نموذجا لما يتوجب أن تكون عليه الجامعة المغربية إجمالا، وجامعتنا على وجه التخصيص، فإنني بطبيعة الحال كذلك أشعر بالبعد الإنساني الخاص الذي يرتبط بمغزى هذا اللقاء الذي هو بمثابة مجموعة من الأعمال المهداة، كي يتذكر الجميع أحد أساتذتنا الأجلاء في هذه المؤسسة الأستاذ قدور بوزياني تغمده الله بواسع رحمته، الذي حظيت بشرف التعرف عليه، والتعرف على حيويته عندما أسندت إلي المهام في هذه الجامعة سنة 2002 وعلى الخصوص 2003. وسنبقى بطبيعة الحال متشبثين بذكراه وباسمه بين طلبته، خاصة وأني علمت من عدة مصادر أنه كان أستاذا معطاءا، كان في ذروة عطائه، واختار تخصصا في حقل من التاريخ يعد من يمارسه على رؤوس أصابع اليد الواحدة.

ثانيا: أرى بأن نوعية ما يقترحه برنامج هذا اللقاء على تنوع محاوره يتميز بالأصالة، ويتميز بنوع من روح الابتكار والتفرغ في هذا المجال، فأهنئ اللجنة المنظمة المحاور المقترحة، أو نوعية الزملاء الباحثين الذين سيتدخلون خلال هذه المحاور وللجميع، ولهذه الكلية العتيدة، ولشعبة التاريخ بهذه المؤسسة، وللجنة المنظمة أتقدم بأحر التهاني، وبصادق المتمنيات ببلوغ الهدف المنشود من وراء هذا اللقاء والسلام عليكم جميعا، ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة السيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية :

بسم الله الرحمان الرحيم، السيد رئيس الجامعة المحترم، السيدات والسادة الأساتذة المحترمين، أعزائي الطلبة، الحضور الكريم، أود في البداية الترحيب بضيفنا الذي حضر الآن معنا، وأود كذلك أن أبلغكم في هذا الباب اعتذارات زميلنا الأستاذ عبد الرحمان المودن الذي كان يود الحضور معنا، لولا أن التزاماته العلمية والأكاديمية في الخارج حالت دون ذلك. كما أعبر كذلك عن سروري لحضوري هذا العرس العلمي ذي البعد كذلك الإنساني، ذلك أن في تكريمنا لزميلنا الفقيد قدور بوزياني من خلال إهداء أعمال هذين اليومين الدراسيين له، هو بالواقع تكريم ذو أبعاد متعددة ، فهو بطبيعة الحال تكريم للأستاذ قدور بوزياني رحمه الله الذي قضى ما يناهز عشرين سنة في خدمة هذه المؤسسة وفي خدمة طلبتها من خلال التدريس والتأطير، ومن خلال البحث العلمي، وثانيا، تكريم للأستاذ الباحث عموما، سواء في هذه الجامعة أو في الجامعة المغربية بصفة عامة، هذا الاستاذ الذي كان يقدم كل ما يستطيع لخدمة الرسالة النبيلة، رسالة التدريس والبحث العلمي، ويقدم هذا في ظل ظروف صعبة محققا بذلك ما يشبه المعجزة، إذن فهذا التكريم هو تكريم إذن للأستاذ الباحث بصفة عامة. وهو كذلك تكريم لهذه المؤسسة بكل مكوناتها بأساتذتها، وبموظفيها، وبطلبتها على ما يبذل من جهود في ظروف صعبة لتحقيق الرسالة النبيلة وهي رسالة الجامعة المغربية. إذن أضيف لما قاله السيد رئيس الجامعة تهاني للجنة المنظمة ولشعبة التاريخ على هذا المبادرة الطيبة، وتماني المسبقة بنجاح هذه الندوة إن شاء الله كما قلت للجنة المنظمة سنعمل ما في وسعنا على إخراج أعمال هذه الندوة في أقرب وقت ممكن لتكون رسالة أخرى لإظهار ما يقوم بها الأساتذة في هذه المؤسسة من مجهودات لرفع راية العلم والمعرفة. إذن مرة أخرى شكرا

للحضور الكريم وتهانئي بنجاح هذه الندوة، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة اللجنة المنظمة : ألقاها الأستاذ محمد تضغوت

السيد رئيس الجامعة المحترم، السيد العميد المحترم، حضرات الزملاء الأفاضل، أيها الطلبة الأعزاء،،،،

كما لا يخفى عليكم فإن شعبة التاريخ في رحاب كليتنا هذه ومجموعة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي التابعة لها عودتنا منذ زمان على عقد عدة لقاءات علمية وتظاهرات ثقافية من حجم كبير كان يشارك فيها عدد المتخصصين في مجال معرفية من داخل الوطن وخارجه، وذلك دائما بهدف تبادل الأفكار في مواضيع بحث معينة، قضايا معرفية ومنجية كانت تفرض نفسها آنذاك اقتصاديا، واجتماعيا، وسياسيا، وثقافيا، والهدف من وراء كل ذلك هو ترسيخ قواعد البحث العلمي في كليتنا وجامعتنا بما يفيد الجامعة المغربية والوطن سواء بسواء. وإن يلاحظ في الآونة الأخيرة أن هذا النشاط وهذه الملتقيات قد بدأت تخبو تدريجيا تحت إكراهات أصبحت الآن معروفة. وإذا كان لكليتنا ولشعبتنا قصب السبق في اختيار مواضيع مفيدة لعدة ندوات ولقاءات علمية يشهد عليها أرشيفها الممتاز في هذا الشأن، فإن شعبة التاريخ ومجموعات البحث والتكوين اغتنمت هذه المنسبة الأليمة التي فقدنا فيها أخا عزيزاً للجميع وأستاذاً فذاً لم يكن على نفسه جهدا من أجل مواكبه البحث وتنشيط الجو العلمي والثقافي داخل الشعبة، ولولا المنية لكنا وجدناه بين ظهر أنينا اليوم، واعترافا لما قدمه المرحوم قدور بوزياني من خدمات فعلية بالكلية والشعبة التي ما تزال بصماته شاهدة، فإن أقل ما يمكن أن يحتفي بروحه الطاهرة هو تنظيم هذا الملتقى العلمي الذي خصصناه لما كان يدخل في اهتمامات المرحوم المعرفية والعلمية. طبعا أن هذا الاهتمام كان اهتماما بدرجة أساسية حول التاريخ العثماني الذي نعتقد أنه من أخصب الفترات التي تقدم للباحث المتعطش معينا معرفيا زاخرا ومفيدا لاستقاء تجارب تاريخية متعددة، فما تزال،

كما تعلمون، البحوث في شأن العثمانيين، وحول سلطتهم الشاسعة الامتداد مجاليا والتي استغرقت مدى زمنيا طويلا نفي بالتفاصيل الضافية من المعلومات مستخلصة من مصادر، ووثائق محفوظة في الخزانات الخاصة والعامة سجلات إدارية، تقييدات المحاكم الشرعية المحلية والولايات، أوقاف، تركات، إقطاعات، إلى غير ذلك. ولا شك أن هذا الزخم من المخلفات المادية قد حفزت مجموعة من المؤرخين والدارسين أتراكا، عربا، وأجانب على الاهتمام بهذا التاريخ وسبر أغواره. وبالرغم من توافر المادة التاريخية فقد ظلت معظم الكتابات بمنأى التاريخ العثماني، تتجاذبها تيارات واتجاهات متباينة متضاربة، فجاءت إما حسب النظرة المركزية الشوفينية الضيقة، وإما مغالية في التحامل على العثمانيين، أو مشدودة للنظرة التقليدية ذات المنحى الوصفي السردي الروائي، فانتفت خلالها الحقيقة التاريخية بين تلافيف هذه المصنفات.

وإن ما شهده الإنتاج الإسطوغرافي في العقود الأخيرة من طفرة نوعية على مستوى المعرفة و المنهج، واكتشاف مظان غميسة، وما يتيحه البعد الزمني عن الماضي العثماني من إمكانات التحري الموضوعي، قد أسهم كما نعلم في بروز دراسات تحليلية قيمة ربما كان الفقيد المرحوم سيدلي بدلوه فيها. إذا كانت بصمات المرحوم قد انصبت، كما قلت، على التاريخ العثماني الذي خصصنا جزءا من هذا الملتقى له، فإن اهتماماته الواسعة كذلك بحقل التاريخ وما نعرفه عنه جعلته ينقب في مواضيع متنوعة مستخلصة طبعا من حقول المعارف المتنوعة.

من أجل ذلك سعت شعبة التاريخ بتنسيق مع وحدة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط إلى تنظيم هذين اليومين

الدراسيين إضافة إلى التاريخ العثماني حول قضايا التاريخ عامة. واعترافا للمرحوم لما أسداه من خدمات فعلية علمية وبيداغوجية فاعلة، ولما قدمه للطلبة من مجهود تكويني في قضايا نشر التاريخ، لعلنا نكون قد وفينا بقسط من الأمانة والذكرى لروحه الطاهرة، وتأسيسا على ذلك اقترحنا في هذا الملتقى، كما قلت، المحور الأول حول قضايا من التاريخ العثماني، المحور الثاني حول قضايا وإشكالات تاريخية.

وكنا نأمل أن يحضر بين ظهرانينا، كما قال السيد العميد الأستاذ عبد الرحمان المودن باعتباره أنه كان مؤطرا ومشرفا على أشغاله العلمية، وفضيلة الدكتور محمود اسماعيل الذي كان المرحوم من جملة تلاميذه الأوائل، غير أن التزامات الأول، وظروف الثاني الاجتماعية حالت دون ذلك.

ونأمل في الختام أن تكلل أعمال هذين اليومين بالنجاح، ونؤكد كما قال الزميل إبراهيم القادري بوتشيش، أن تخرج هذه الأعمال إلى النور في أقرب وقت ممكن، وأن نعطى لها الأولوية إذا كان الأمر كذلك. والسلام.

محور التاريخ العثماني

من إسهامات الفقيد قدور بوزياني في كتابة تاريخ العلاقات المغربية – العثمانية

ذ. جمال حيمر
كلية الآداب – مكناس

لا شك أن أحسن طريقة لتكريم روح الراحل قدور بوزياني هو تسليط الضوء على أعماله، ووضع إنتاجه الوضع الذي يناسب مكانته، ولا تزعم هذه المداخلة القيام بفحص إنتاج الفقيد فحصا عليما، ودراسة آثاره دراسة عميقة ونقدية، بل هي مجرد شهادة علمية لزميل ورفيق جمعته بالراحل روابط المحبة الخالصة والصداقة المثالية، وشاركه ميدان العمل في التدريس والبحث العلمي مدة تزيد على عشرين سنة.

وروما للإقتضاب سأكتفي بإطلاع الحضور الكريم على بعض الجوانب من الرصيد المعرفي الذي خلفه الفقيد. وهو رصيد خليق بكل تقدير، لأنه يشرف البحث العلمي والجامعة المغربية.

يدرك كل متتبع لتطور البحث التاريخي بالمغرب أن ملف تاريخ العلاقات المغربية العثمانية ظل مغيبا وخارج اهتمامات الباحثين المغاربة. وإذا كانت باقي بلدان شمال إفريقيا قد ارتبطت منذ العقود الأولى من القرن 16 بالدولة العثمانية ارتباطا تبعيا جعل تاريخ وثقافة هذه الدول جزء لا يتجزأ من التاريخ والثقافة العثمانيين بصفة عامة، فإن المغرب انفلت عن سيادة آل عثمان، وحال دون مسعاهم في تكوين وحدة إدارية وسياسية عثمانية تشمل كل أقاليم الجناح

الغربي من العالم الإسلامي حيث برزت معالم السيادة الشريفية (السعدية – العلوية) في مواجهة السيادة العثمانية، فتمخض عن ذلك أطوارا من التوترات والتراعات الظاهرة والخفية، ولكن ذلك وفر أيضا شروطا لربط الجسور بين الطرفين وتعزيز إمكانات التفاهم والتبادل.

وبالنظر لأهمية هذا الحضور العثماني وفعله في مجريات التاريخ المغربي الحديث من جهة، وبداية تعدد اتجاهات البحث التاريخي الأكاديمي من جهة ثانية، برز مع بداية الثمانينات اهتمام من لدن الباحثين المغاربة بدراسة علاقات المغرب بالباب العالي، ويعد المرحوم أحد هؤلاء الباحثين المعدودين على رؤوس الأصابع، نذكر منهم عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة وعبد الحفيظ الطبايلي.

وليس من المبالغة أو بفعل ما تمليه لحظة التكريم وتستوجبه من خطاب مناسب لها القول إن الفقيد قد ساهم بقسط وافر في ملء عدد من البياضات التي تخص تاريخ العلاقات المغربية العثمانية، ذلك انه منذ تسجيله لموضوع رسالته الجامعية لنيل دبلوم الدراسات سنة 1985 تحت عنوان:"المغرب وباشوية الجزائر: مساهمة في دراسة العلاقة المغربية العثمانية"، وبعد مناقشته لها سنة 1988، ظل مشدودا بقوة إلى الكتابة عن هذه العلاقة، شغوفا بالبحث والمتابعة الدقيقة لأهم أطوار هذه العلاقة ومظاهرها ولا لازمها من اتصالات دبلوماسية ومواجهات عسكرية، دون ان يغفل الإهتمام بالملامح الإقتصادية والإجتماعية والثقافية التي تخللت روابط الطرفين، وعززت من صور التفاعل وتبادل التأثيرات الحضارية بين الجانبين، عدا محاولة إلمامه بالكتابة التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقة المغرب بالعثمانيين.

بقد ربط الراحل علاقة وجدانية مع موضوع بحثه، وظل وفيا لالتزامه واختياره العلمي حيث سجل سنة 1994 أطروحته لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ تحت إشراف الدكتور عبد الرحمن المودن بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان:"جوانب من تاريخ البحرية الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ق 10-11 هـ/ ق 16-17م"، ورغم تزامن تسجيل أطروحته بإلمام المرض به لم ينقص هذا من عزيمته وجديته، بل وأصل مشواره العلمي بعزم وثبات من ذلك إقباله،- بما عرف منه من استعداد فطري لتعميق معارفه- على تعلم اللغة التركية بغية ارتياد الأرشيف العثماني لما يوفره من إمكانات في مجال تخصصه، ووعيا منه أن الصورة التي تقدمها أية دراسة حول علاقات المغرب بالباب ستبقة بالضرورة ناقصة ومبتورة إن هي استندت فقط إلى المصادر والوثائق المغربية لما تتسم به من نقص وهزال، غير ان الأقدار حالت دون تحقيق مراده وطموحه، ففارقنا وهو في عز عطائه الفكري.

ومن نماذج إسهامات الفقيد نذكر على وجه التخصيص:

صورة العثمانيين في كتابات الرحالة المغاربة: شارك بها ضمن أعمال ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات 5- السنة 1993.

انصبت هذه لمقالة على مقاربة ملامح الصورة التي رسمتها الرحلات المغربية الحديثة للعثمانيين كسلطنة إسلامية أفلحت في اكتساب ولاء معظم البلاد العربية ووصلت بنفوذها إلى التخوم الشرقية للبلاد المغربية، وقد اختار لرصد معالم هذه الصورة نموذجين محددين هما رحلة"ماء الموائد" لصاحبها أبي سالم العياشي ثم رحلة الزياني الموسومة "بالترجمانة الكبرى".

وفي دراسته حول "علاقة المغرب بالأتراك الجزائر في العهد الإسماعيلي"، ضمن أعمال ندوة السلطان المولى إسماعيل منشورات جامعة مولاي إسماعيل، يقدم متابعة دقيقة لأهم اوجه ومظاهر هذه العلاقة ضمن ثلاثة اطوار مركزية ومتباينة بعضها عن البعض الآخر، محددا موقف وتوجهات كل طرف إزاء الطرف الآخر، مبرزا أن خاصية التحول وعدم الثبات قد ميزت أطوار هذه العلاقة حيث انتقلت من طور اتسم بتبني إيالة الجزائر لسياسة هجومية إزاء المغرب الأقصى إلىطور تميز باندفاع السلطة المركزية المغربية في سياسة هجومية ضد نيابة الجزائر، ثم ختمت بتوقيع الصلح واتجاه السلطة المركزية المغربية إلى تعزيز وتوسيع نفوذها بالجهات الوسطى والجنوبية الغربية من المغرب الأوسط، كما خلص إلى التأكيد على حضور عنصر الحدود والحرص على التحديد كلازمة ضمن لوازم صيرورة هذه العلاقة. وقد برز ذلك بوضوح في محججات الأتراك وتذرعهم لما اتفق عليه سابقا مع المولى محمد الشريف وأخيه المولى الرشيد، وبالتالي تثبيت خط تافنا كخط فاصل سياسيا وجغرافيا لبين الطرفين، كما أشار إلى الثقل الذي كان لبعض القوى الأوروبية في توجيه هذه العلاقة وديا او عدائيا، من قبيل الدور الذي لعبته فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في تحريك خيوط هذه العلاقة وتوجيهها بالقدر الذي يخدم مصالحها، ويحول حسبما يذكر بعض الباحثين دون قيام جبهة إسلامية متحدة ومتضامنة بالشمال الإفريقي.

وتحت عنوان"بعض الملامح الثقفية في علاقة المغرب بإيالة الجزائر الشرقية"

يعرف المرحوم بأهم هذه الملامح عارضا لصور وأشكال التواصل المعرفي بين الجانبين انطلاقا من بعض النماذج. وكذا للدور الذي لعبته الروابط الثقافية

في تعزيز أسس انتمائها الحضاري المشترك، وفي تدعيم تواصلهما ضدا على الخلافات السياسية والمواجهات العسكرية التي كانت بينهما.

وفي ندوة "المغاربة في العهد العثماني" التي نظمتها كلية الىىداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 1995، بتعاون مع مؤسسة كونراد ادناور بالرباط، والسفارة التركية بالرباط، ومؤسسة العلاقات العربية التركية بإستنبول، شارك المرحوم بعرض عالج فيه إشكالية "البعد الحدودي في علاقة المغرب بأتراك الجزائر"، فأبرز أهم الخطوات التي لازمت اقتحام عنصر الحدود في علاقة المغرب الجزائر، مستعرضا بالإرتكاز على عدة مصادر وكتبات عربية وأجنبية مختلف الجهود التي بذلها العثمانيون وولادهم بإيالة الجزائر من اجل إقناع الأشراف السعديين ومن بعدهم العلويين بضرورة الإتفاق على جيوسياسي فاصل بين مجالات نفوذها.

ومما له دلالته ومغزاه في مسار الفقيد العلمي ان أصبح أحد المساهمين النشيطين في المجلة التاريخية المغاربية التي تصدرها مؤسسة التميمي بتونس حيث نشر بها ثلاث مقالات وهي:

*العثمانيون في الخطاب التاريخي العربي الحديث والمعاصر (ع 95-96)

*قوى التضامن وأشكال التلاحم في علاقات العرب بالعثمانيين (ع 97-98)

*دور الطائفة البحرية التركية في توجيه العلاقات المغربية العثمانية إبان القرن السادس عشر.

واعتبارا لضيق المجال سأكتفي بالحديث عن دراسة التي اهتم فيها برصد ومتابعة آراء ومواقف المفكرين والمؤرخين العرب من التجربة التاريخية والحضارية العثمانية. فالأمبراطورية العثمانية التي عمرت ما يزيد عن ستة قرون وشملت سيادتها أقاليم شاسعة، وإثنيات وقوميات متنوعة، حظيت باهتمام

ومعالجة الكثير من المؤلفين والمهتمين ومن ضمنهم المفكرين العرب سيما وأن معظم البلاد العربية قد خضعت لفترات غير قصيرة للنفوذ العثماني، واعتمادا على استشهادات ونماذج تمثيلية، تم التأكيد على أن المفكرين العرب قد نظروا بحماس لتاريخ العثمانيين فيما بين القرنين 16 و18، وبلوروا آراء مؤيدة للعثمانيين ولتوسعاتهم بالبلاد العربية. وبفعل التطورات المختلفة التي طبعت القرن الثامن عشر (انتشار مبادئ الثورة الفرنسة، حملة نابوليون بونابارت على مصر، تجربة محمد علي الإصلاحية، استعمار الجزائر وعدن ...). اتجه أقطاب الفكر العربي الإسلامي إلى الدعوة إلى تبني الإصلاح والتحديث، والتمسك بالإرتباط والتبعية للحكم العثماني، وفي العقدين الأولين من القرن العشرين، برزت مواقف وآراء عربية تدعو أولا إلى تحقيق الحكم الذاتي، وتوج لفوائد اعتماد اللامركزية في علاقة العرب بالعثمانيين، وما لبث هذه الدعوات ان تحولت إلى آراء معادية للعثمانيين، ومنادية للعثمانيين، ومنادية بتحقيق استقلال العرب النهائي عن الحكم العثماني.

وبعد سقوط الأمبراطورية العثمانية وإلغاء مؤسسة الخلافة، وفي خضم التطورات التي عرفتها البلاد العربية فيما بعد الحربية العالميتين، توزعت مواقف المفكرين والمؤرخين العرب من التاريخ والإرث الحضاري العثماني، وشهدت الساحة الفكرية بروز اتجاهين مركزين: أحدهما يندد بالعثمانيين ويحملهم مسؤولية كل الأمراض والعلل التي هاني ويعاني منها العالم العربي (الفكر القومي في المرحلة الناصرية). وثانيهما يراهن على تمجيد العثمانيين ويبرئهم من كل التهم والنقائص المنسوبة إليهم (الإتجاه الإسلامي). ويختتم الدراسة بالقول إن التاريخ العثماني هو في المقام الأول والأخير تجربة تاريخية وحضارية جمعت بين السلب والإيجاب، وحكمتها العديد من النوازع والظروف، وأية نظرة تتجاوز

هذا الإطار على بساطته تنعت بحق باللاعلمية وترمى بعدم الموضوعية والنجاعة، فهل تستقيم المغرفة التاريخية الأكاديمية بالإعتماد على تبييض أو تسويد الصفحة العثمانية، وهل بهذا المستوى يمكن أن يكون للعرب فهمهم الخاص للتاريخ العثماني، وما جدوى هجاء العثمانيين أو مدحهم في مواجهة ركام التحديات والصعوبات التي تشذ بخناق كل الشعوب الإسلامية حاضرا، وقد يكون وقعها وتأثيرها أشد وأعظم مستقبلا.

ولعل أثمن واجزل مكسب يمكن ان تتمخض عنه هذه المبادرة، هو طبع الأعمال غير المنشورة للمحتفى به حتى يتم تداولها وتواصلها بين الطلبة والباحثين المهتمين بتاريخ العلاقات المغربية العثمانية، وتلك هي الخدمة التاريخية الجلى التي يمكن أن تسديها هذه المبادرة، وإلا باتت هذه التظاهرات من قبيل التآبين الرسمية، ومن باب اذكروا امواتكم بخير.

العثمانيون في مخيال الغرب

ذ. محمود إسماعيل
جامعة المنصورة – مصر

سبق لنا دراسة رؤية الغرب للإسلام والمسلمين بوجه عام، وأوضحنا ارتباطها بتطور العقلية الغربية نتيجة التطور الاقتصادي- الاجتماعي.

لقد سادت الرؤية الكنسية المشككة في الإسلام، المتحاملة على شخص نبيه إبان سيادة النظام الإقطاعي "الفيودالي"، ثم خفت وطأتها نتيجة تأثير النهضة الأوروبية التي كانت بدورها نتيجة خلخلة البنية الإقطاعية بفضل البرجوازية الصاعدة. ثم تغيرت تلك الرؤية العدائية إبان انتصار البرجوازية على الإقطاع واستنارة العقل الغربي في "عصر الأنوار" -خلال القرن الثامن عشر- فوجد بين مفكري الغرب من اعترف بالإسلام كديانة سماوية، ومن أعجب بنبيه كرجل دولة من الطراز الأول. ومع ظهور الرأسمالية وحركة الاستعمار الغربي، ظهرت حركة الاستشراق بمالها وما عليها من حيث تقديم دراسات على قدر كبير من الموضوعية عن الإسلام والمسلمين [1]. ثم انتكست تلك الرؤية خصوصا منذ بدايات القرن الحالي، فجرى تصوير الإسلام كدين "إرهاب" واعتبار المسلمين خطرا على الحضارة الغربية المعاصرة.

---

[1] أنظر : محمود اسماعيل : إشكالية المنهج في دراسة التراث، مبحث بعنوان ((الغرب والإسلام))، القاهرة 2004، ص129 وما بعدها.

وفي دراسة أخرى، أثبتنا نظرة الاستشراق الإشتراكي المنصفة للإسلام، حيث جرى اعتباره ثورة اجتماعية كبرى غيرت وجه التاريخ بفضل المسلمين الذين شادوا حضارة إنسانية أسهمت في تأسيس الحضارة الغربية نفسها [2].

وما يعنينا في هذه الدراسة هو إثبات رؤية الغرب للدولة العثمانية التي ظهرت كأخطر قوة إسلامية تهدد الغرب الأوروبي بعد إسقاط القسطنطينية عام 1453م، وتوسعت في أوروبا الشرقية وهددت أوروبا الغربية، متبعين منهجنا في الدراستين السابقتين، وهو رؤية الفكر من خلال الواقع الإقتصادي /الإجتماعي. ودون مصادرة على النتائج، نرى أن تباين رؤية الغرب للدولة العثمانية وتراوحها بين العداء والإنصاف، وأن اختلافها من قبل رجال الدين والساسة والمفكرين العلمانيين، راجع إلى أسباب سوسيو- سياسية، ومن ثم سوسيو- ثقافية بالضرورة.

فرجال الكنيسة المسيحية تشبثوا بالرؤية الكنسية الموروثة عن عصر الفيودالية، من حيث التحامل على الإسلام والمسلمين، خصوصا بعد فشل الحروب الصليبية. إذ تحت تأثير صعود نجم العثمانيين واجتياحهم أوروبا الشرقية، جرى إحياء مشروع القضاء على الإسلام بالقوة، خصوصا بعد إخفاق التحالف مع المغول — الذين اعتنق معظمهم الإسلام — وعدم نجاح حركة التبشير التي رامت تحويل المسلمين إلى المسيحية [3].

---

[2] أنظر: محمود اسماعيل: ((الاسلام السياسي بين الأصوليين والعلمانيين، مبحث بعنوان ((العالم الإسلامي في نظر الغرب — بين الدين و السياسة))، الكويت 1993، ص125 وما بعدها.

[3] سوذرن ((ريتشارد)): صورة الاسلام في أوروبا العصور الوسطى، الترجمة العربية، بيروت 1984، ص116.

من هنا، عقدت مجامع دينية بهدف توحيد المذاهب المسيحية، وجرى الاتصال بملوك أوروبا لاستحثاثهم على إعداد الجيوش لتحرير أوروبا الشرقية، وإسقاط الحكم العثماني، والاستيلاء على العالم الإسلامي. وقد ظهرت تلك الفكرة في كتابات "يوحنا السيجوفي" الذي أظهر اهتماما بالتعرف على الإسلام، وأعاد ترجمة القرآن إلى اللاتينية، وإدراكه استحالة منافحته والقضاء عليه نظرا للتشرذم السياسي والصراعات المذهبية في أوروبا. لذلك هداه تفكيره إلى ضرورة عقد حوار مسيحي- إسلامي يمكن أن يقدم حلولا عملية لوقف الزحف العسكري العثماني [4].

وقد تلقف " نيقولاوس فون كيس" -المحب للسلام- تلك الفكرة، وطورها في صورة توحيد الديانات السماوية الثلاث، خصوصا وأنها جميعا تنطوي على قواسم مشتركة. لذلك بادر بتقديم دراسة رصينة عن الإسلام - على قدر من الموضوعية - تطرح ظهريا الأفكار الخاطئة والعدائية السابقة التي روج لها رجالات الكنيسة الكاثوليكية. كما أوفد بعثات إلى القسطنطينية للتشاور حول إمكانية عقد مؤتمر يتبنى فكرته[5].

لكن تلك الفكرة ما لبثت أن تعثرت، نظرا لمعارضة الكثيرين من المطارنة - وعلى رأسهم " جان جرمان " - الذين انتصروا للفكرة المعاكسة، وهي شن حرب صليبية مقدسة جديدة، وبادروا بالاتصال بملوك أوروبا للإعداد لها[6]. كما قام بعضهم بإعداد دراسات تدين الإسلام، ومع ذلك ترى أن الحوار الإسلامي - المسيحي قد يحسم لصالح الإسلام [7].

---

[4] نفسه، ص134.

[5] نفسه، ص137 وما بعدها.

[6] Doutrcpont ;.G: Litterature Française a la cour des Ducs a Bour; paris; 1909, p:52.

[7] سوذرن : المرجع السابق، ص143.

على أن الرأي الداعي إلى الحوار ما لبث أن انتصر وأسفر عن رسالة كتبها "إينياس سلفيوس" باسم البابا " بيوس الثاني" جرى إرسالها إلى السلطان "محمد الفاتح" عام 1460م. وقد انطوت الرسالة على إعلام السلطان بفضائل المسيحية وتبصيره بقوة ملوك أوروبا الغربية بما يشكل تحذيرا غير مباشر خفف من وقعه إشادة البابا بشجاعة السلطان وفروسيته. كان الهدف من الرسالة دعوة السلطان إلى اعتناق المسيحية، مقابل الاعتراف به قيصرا على بلاد اليونان[8].

لكن الدعوة باءت بالفشل، خصوصا وأنها انطوت على نوع من التهديد، فضلا عن عبارات تسيء إلى القرآن[9]. وبرغم هذا الفشل، إلا أن الرسالة تشي باهتمام رجال الدين المسيحي بالإسلام كقوة سياسية وعسكرية فرضها واقع الحال، كذا محاولة تحكيم العقل في النظر إلى الإسلام بدلا من النهج الجدلي المماحك، والمتشح برداء الصراع الديني.

بديهي أن يفرض ((واقع الحال)) هذا وجوده على المستوى السياسي، فنظرا لقوة العثمانيين وتعاظم الخلافات بين ملوك أوروبا، وتفشي الجدل الديني المتعصب بين الفرق الدينية المسيحية، لم يجد بعض ملوك أوروبا حرجا في محاولة التحالف مع العثمانيين ضد بعضهم البعض. بل سرت نظرة الانبهار بالعثمانيين لقوتهم العسكرية، ونظمهم الدستورية، واتّباعهم سياسة التسامح مع المسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم، بين الأوروبيين الذين عاشوا في كنف نظم متخلفة حضاريا [10].

---

[8] محمود اسماعيل : إشكالية المنهج، ص139.

[9] سوذرن : المرجع السابق، ص148.

[10] محمود اسماعيل : إشكالية المنهج، ص139.

أما المسيحيون "البروتستانت"، فبرغم عدائهم المقيت للإسلام والعثمانيين، فقد اعتبروا انتصاراتهم دليلا على غضب المسيح على الكنيسة الكاثوليكية التي كانت مفاسدها تبرر التصدي لمواجهتها، بدلا من مواجهة الخطر العثماني[11].

هكذا، أحدث العثمانيون خلخلة في رؤية الغرب للإسلام، كما وجهوا الاهتمام في أوروبا لدراسته بصورة واقعية، برغم العداء المتأصل ضد الإسلام المسلمين[12]. إذ حل العداء السياسي محل العداء العقدي، فلم يتورع ملوك أوروبا عن الاستعانة بالعثمانيين ضد بعضهم البعض، وأصبحت كلمة "تركي" في المخيال الأوروبي بديلا للفظة "مسلم" [13].

وعلى الصعيد المعرفي، تحرر المخيال الغربي من الرؤية الكنسية، وانبرى المفكرون العلمانيون يعالجون الإسلام بنهج موضوعي واقعي. إذ زار بعضهم القسطنطينية، وبهر بجلالها، فوجهوا اهتمامهم لدراسة الدولة العثمانية بنظمها السياسية والإدارية والعسكرية وفق معالجات منصفة، بل مبجلة [14]. وتقاطر الرحالة لزيارة الأقطار الإسلامية، وتأثر بعضهم بالنمط الإسلامي في العادات والتقاليد، وبهر البعض الآخر بما انطوى عليه المسلمون من شمائل أخلاقية [15]. وترتب على ذلك تعاظم الدراسات الإسلامية في أوروبا، واهتم الدارسون بمعرفة اللغتين التركية والعربية، وأشادوا بما انطوى عليه الإسلام من تسامح ديني

---

[11] سوذرن : المرجع السابق، ص151-152.

[12] رودنسون ((مكسيم)) : الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام، دراسة في كتاب ((تراث الإسلام))، الترجمة العربية، ج1، ص54، الكويت 1988.

[13] Daniel ; C : Islam ; Europe and Empire ; Edinburg ; 1966, ; p12.

[14] رودنسون : المرجع السابق، ص58-59.

[15] نفسه، ص60.

ونزعة عقلانية. وقد أثرت تلك المعلومات على المستوى الشعبي، إلى حد نزوح الكثيرين من المضطهدين دينيا إلى الدولة العثمانية والإقامة بها [16]. كما أبدى البعض إعجابا بالإسلام، فيما يتعلق بشريعته، خصوصا في مسائل الأحوال الشخصية كالزواج[17].

بديهي أن تتطور تلك الرؤية الموضوعية خلال "عصر الأنوار"، برغم وجود نظام الرق، واشتغال بعض المسلمين بالقرصنة البحرية، لا لشيء إلا لأن الظاهرتين مورستا في أوروبا على نطاق أوسع[18]. كما بهر الأوروبيون بفروسية المقاتل العثماني التي جمعت بين القوة والأريحية، والذي حقق لبلاده الأمن والاستقرار[19].

وحظيت المرأة التركية بمكانة سامية، فكتابات "ماري مونتاجيو"، وهي كتابات تتسم بالواقعية وتصحح أخطاء الرؤى المتواترة المستمدة من روايات أسطورية ولاهوتية. ولعل فيما كتبه " روسو" – الذي كان والده ساعاتي في بلاط القسطنطينية، ما يؤكد تلك النظرة الواقعية في معالجة العادات والتقاليد العثمانية [20]. كذا فيما كتبه الرحالة "فولني" – الذي زار مصر والشام عام 1787م – وصحح من خلاله الأخطاء المتواترة عن الإسلام والمسلمين، عقيدة وشريعة وحضارة [21].

---

[16] Daniel : op-cit ; p : 288.

[17] Hazard ; C : La crise de la conscience Européenne ; p : 22 ; paris ; 1935.

[18] Daniel : op-cit ; p.p : 14-15.

[19] عبر الأدب الأوروبي عن حال السلم والأمان تلك في رواية Candide لفولتير، حيث استشعر أبطال الرواية هذه الحال عندما اقتربوا من القسطنطينية. كما تأثروا بحكمة أحد ((الدراويش)) الأتراك وبعقليته النيرة.

[20] Hazard : op-cit ; p : 20.

[21] رودنسون : المرجع السابق، ص71.

من هنا كانت أفكار "نابليون بونابرت" وتصوراته عن الشرق الإسلامي التي استمدها من "روسو" و"فولتير" و "مونتسكيو"، كما دعمها بإطلاعه على ما كتبه "فولني" ورواه له. ولاغرو، فقد سجل "نابليون" رؤيته تلك في كتابه ((مذكرات حول التتر والأتراك))[22]. ولعل تلك الرؤية كانت حافزا له على صياغة مشروعه السياسي الطموح في الشرق الإسلامي[23]. وتنهض حملته على مصر ولقائه مع مشايخ الأزهر على ما ينم عن طبيعة هذا المشروع الذي بناه على أساس اقتران الدين بالسياسة في العالم الإسلامي[24].

خلاصة القول، أن العثمانيين سواء في تفوقهم العسكري، أو في نظمهم المستقرة، أو في أنماط حياتهم المعتدلة والمتحضرة، قد أسهموا في تغيير المخيال الأوروبي بصدد الإسلام والمسلمين نحو الواقعية والموضوعية. على أن هذا المخيال ما لبث أن ضبب نتيجة الغزو الاستعماري الذي ورث أقطار "الرجل المريض"، حيث تحولت الواقعية إلى نوع من الرومانسية، والموضوعية إلى التعصب، و الإعجاب إلى نزعة نفعية لا أخلاقية [25]. وإن كان الإنصاف يقتضي الاعتراف باختفاء الرؤية اللاهوتية الكنسية إلى العثمانيين.

وأسهمت حركة الاستشراق في الاحتفاء والاهتمام بدراسة الإسلام والمسلمين وفق مناهج علمية ورؤى تنطوي على قدر كبير من الموضوعية. وسواء كان هذا الاهتمام راجعا إلى عوامل سياسية، أو معرفية، فإن تاريخ

---

[22] لورنس : بونابرت والإسلام، الترجمة العربية، القاهرة 1998، ص13.

[23] نفسه، ص14.

[24] نفسه، ص16.

وقد ذكر نابليون أنه لو استولى على ((عكا)) لارتدى العمامة، وارتدى جنوده السراويل الإسلامية الفضفاضة، وأصبح إمبراطورا على الشرق.....وعاد إلى باريس عن طريق القسطنطينية. نفسه، ص23.

[25] رودنسون : المرجع السابق، ص72.

وحضارة العثمانيين حظيا بزخم معرفي أثر- بدوره- في الوجدان الشعبي الأوروبي، خصوصا ما تعلق بالحريم والجواري والخصيان في البلاط العثماني[26]، لتعود النظرة إلى العثمانيين في مسوح رومانسي حينا، ومتعصب أحيانا.

وإذ اتسمت رؤية الرحالة ورجال الاقتصاد بالإنصاف، فقد تلونت رؤية الساسة بالطابع العدواني. لكن هذا الطابع ما لبث أن توارى تحت تأثير القضاء على "الرجل المريض" واتجاه الأتراك نحو الحداثة الأوروبية[27] بعد إعلان "كمال أتاتورك" نهاية الخلافة الإسلامية عام 1924م.

هكذا تنوعت رؤية الغرب للعثمانيين حسب معطيات سياسية وعسكرية، وأخرى تتعلق بتطور العقل الغربي وانعتاقه من إسار اللاهوت إلى آفاق العلم الحديث، وكلها محض تجليات لتطور الواقع الاقتصادي-الاجتماعي من الفيودالية إلى البورجوازية ثم إلى الرأسمالية.

---

[26] نفسه، ص79.

[27] نفسه، ص83.

العثمانيون ومسألة الخلافة

مقاربة تاريخية

ذ. عبد الفاضل الصافي

كلية الآداب – مكناس

أطلق المسلمون، بعد وفاة الرسول (ص)، لفظ "الخلافة" على نظام حكمهم الجديد، بشكل عفوي، ودون إعمال للبحث والاختيار. فلقد كان الرسول يتولى، بالإضافة إلى التبليغ بما أوحي إليه، أمور أمته الدنيوية: أي سياستها وحكومتها. وعندما اختاره الله كان المطروح في سقيفة بني ساعدة هو استخلاف خليفة يخلف الرسول في هذا الأمر الأخير. وقد طرح أبو بكر الصديق، آنذاك، قضية خلافة الرسول (ص) بكلمة جاءت كالتالي[1]: "إن محمدا قد مضى بسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم، يرحمكم الله".[2] ولما نظروا واختاروه وبايعوه كان ذلك استخلافا، وكان النظام الذي أسسوه خلافة للرسول في أمر الأمة، وكان أبو بكر خليفة رسول الله. فداود في القرآن "خليفة" (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) ولكن المراد بخلافة داود هنا هي خلافة الله، أي النبوة، أو خلافة من سبقه في ملك بني

---

[1]) د. محمد عمارة، نظرية الخلافة الإسلامية، ضمن سلسلة قضايا إسلامية، رقم 5، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، د ت، ص 11.

[2]) الشهرستاني، نهاية الاقدام في علم الكلام، ص 479. نقلا عن محمد عمارة، م س، ص 12.

إسرائيل، فتكون "الملك". ولم يكن كذلك أبو بكر ولا منصبه، فلم تكن خلافته نبوة ولا ملكا.[3]

تولى عمر أمر الأمة بعد أبي بكر، وبعد البيعة طبعا. ويحكي الجاحظ (163/255 هـ، 780/869 م) ذلك الحوار الذي دار بين عمر والمغيرة بن شعبة في الموضوع الذي نحن بصدده، والذي جاء فيه:

قال المغيرة لعمر: يا خليفة الله.

فقال عمر: ذاك نبي الله داود.

قال المغيرة: يا خليفة رسول الله.

فقال عمر: ذاك صاحبكم المفقود (أي أبو بكر)

قال المغيرة: يا خليفة خليفة رسول الله.

فقال عمر: ذاك أمر يطول.

قال المغيرة: يا عمر.

فقال عمر: لا تبخس مكاني شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم.

فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين.[4]

إن الخلافة كما عرفها المسلمون الأوائل، هي تولي أمور الأمة الدنيوية من سياسة وإدارة... وتأتي بالبيعة لا بالوراثة ولا بالتسلط ولا بأي شكل آخر. ولم تكن خلافة لله فوق الأرض، فالله ليس رجل دولة حتى يخلفه رجل دولة، وإنما هو الله. وتجب الإشارة هنا إلى أن علماء الدين المسلمين قد اختلفوا فيما بعد في بعض الأمور الهامشية المتعلقة بالخلافة، كطريقة البيعة والشروط اللازم

---

[3]) محمد عمارة، م س، ص 12.

[4]) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، هامش ص 162، تحقيق محمد أديب، بيروت 1955. نقلا عن محمد عمارة، م س، ص ص 14 — 15.

توافرها في الخليفة، ولكن كان هناك إجماع بينهم حول المسائل الجوهرية، وللمزيد من التدقيق يستحسن مراجعة مؤلف الدكتور محمد عمارة "نظرية الخلافة الإسلامية".

هذا تمهيد تروم به هذه الورقة التذكير فقط، لأنها لا تنوي مناقشة مسألة الخلافة العثمانية من الزاوية الدينية، فذلك يخص علماء الدين، كما أني لست لذلك أهلا، ولا ترمي هذه الورقة إلا إلى مقاربة المسألة من الزاوية التاريخية.

يأتي الحديث عن "خلافة" السلاطين العثمانيين في بعض الكتابات التاريخية، مقرونا بمسألة انتهاء "الخلافة العباسية". وتجمع هذه الكتابات على أن المتوكل العباسي تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة 1517، أي سنة ضم هذا الأخير للقاهرة التي كان يعيش فيها المتوكل في ظل السلطان المملوكي، وقد كان هذا الأخير بدوره يستظل بظل الأول في مواجهاته مع باقي الحكام المسلمين. وتجب الإشارة هنا إلى أن الكتابات المشار إليها ليست معاصرة لحدث ضم مصر.

أول سؤال: ماذا عن هذا التنازل؟.

إن المصادر التاريخية المعاصرة لسنة ضم القاهرة إلى السلطنة العثمانية، لا تذكر شيئا عن هذا التنازل المزعوم. فالمؤرخ المصري ابن إياس (بدائع الزهور في وقائع الدهور) والتركي أحمد فريدون بك (منشآت السلاطين)، وهما كانا معاصرين لحدث الضم، لم يشيرا لا من قريب ولا من بعيد لأي تنازل عن الخلافة من طرف المتوكل لصالح سليم الأول، مع الإشارة إلى أنهما دونا الوقائع بتدقيق.[5] ولتأكيد عدم التنازل، نظيف أن خطباء المساجد في مصر بعد 1517،

---

[5]) أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، طبعة خاصة ثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985، ص ص 201 ـــ 202.

كان نص دعائهم لولي الأمر السلطان سليم العثماني، حسب ابن إياس هو:" وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرا عزيزا، وافتح له فتحا مبينا...".[6] إذن لا ذكر للقب الخلافة مقرونا باسم السلطان سليم في الدعاء على منابر القاهرة، وهذا له دلالته.

وللمزيد من التأكيد، أضيف أن ابن إياس بقي في مؤلفه يصف سليم الأول بلقب السلطان كلما تكلم عنه، وذلك حتى وفاة السلطان، فهو يقول:"ومن الحوادث العظيمة الغريبة ما وقع يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ذي القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة، قدم قاصد من البحر الملح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان بن السلطان سليم شاه بن عثمان، فلما طلع إلى عند ملك [يقصد أمير] الأمراء فسلمه المرسوم، فكان من مضمونه أن السلطان سليم شاه قد توفي إلى رحمة الله تعالى."[7] فكيف لرجل يصف الوقائع بهذه الدقة، أن يغفل عن تنازل عن الخلافة.

إن كل ما أجمعت عليه المصادر التاريخية، هو أن السلطان سليم الأول اصطحب معه في عودته إلى إستانبول المتوكل العباسي ضمن مجموعة من العلماء والقضاة والأعيان وحتى أصحاب الحرف، ولم يُسمح للمتوكل بالعودة إلى مصر إلا بعد وفاة سليم الأول وتولي السلطان سليمان القانوني. بل وأكثر من ذلك، ففي سنة 1523 وهي السنة التي عاد فيها المتوكل إلى مصر، تمرد أحمد باشا على السلطنة العثمانية بغية الانفصال بمصر عن السلطنة، وطلب من

---

[6]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 5، تقديم وتحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، القاهرة 1984/1404، ص 148.

[7]) نفسه، ص 360.

المتوكل الاعتراف له بلقب سلطان مصر ـــ فقد جرت العادة من قبل ضم مصر بإشراف "الخلفاء العباسيين" على مراسيم تنصيب السلاطين المماليك، وذلك لإضفاء الشرعية عليهم ـــ فلم يتردد المتوكل في فعل ذلك، مما يعني أن هذا الأخير كان يعتقد أنه مازال "خليفة". وبالرغم من أن إستانبول قضت على هذا التمرد، فإنها لم تلحق بالمتوكل أي أذى، واستمر يعيش في مصر إلى أن مات سنة 1543.

إن أول مؤرخ ادعى ـــ حسب الدكتور محمد أنيس ـــ أن سليما أخذ من المتوكل تنازلا عن الخلافة هو المؤرخ الأوروبي دوسون Dhosson في كتابه الذي ألفه أواخر القرن 18 تحت عنوان Tableau général de l Empire Ottoman وادعى كذلك أن سليم الأول أخذ من المتوكل شعائر الخلافة التي كانت مودعة في القاهرة، وهي بردة النبي (ص) وبعض شعرات من لحيته وسيف عمر، ومنذ ذلك الحين انتقلت الخلافة إلى العثمانيين حسب هذا المؤرخ.[8] ولم يظهر الحديث عن هذا التنازل في الكتابات العثمانية إلا أواخر القرن 19، حيث دار نقاش حول المسألة، سنأتي على بعضه في هذه الورقة.

لقد خلف السلطان سليمان القانوني أباه سليم الأول، وهو بلا منازع أشهر سلاطين بني عثمان، ووصلت السلطنة على عهده أوج مجدها، فهل ادعى سليمان الخلافة؟. عن هذا التساؤل يجيبنا نص رسالة بعث بها سليمان إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا، يقول فيها:

أنا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة. ظل الله في الأرض، سلطان البحرين الأبيض والأسود وخاقان البرين

---

[8]) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي(1514 ـــ 1914)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1985، ص116.

وملك الروملي والأناضول وبلاد الكرمان وبلاد الروم وزلكدريا وديار بكر وكردستان وآذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس وكل البلاد العربية واليمن وبلاد كثيرة أخرى افتتحها آبائي الأشراف وأجدادي الأمجاد نور الله مراقدهم بقوة سلاحهم وجعلتها جلالتي المعظمة تابعة لسيفي الملتهب ومهندي المنتصر, أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان، أبعث إليك أنت فرنسيس ملك فرنسا...[9]

يتضح لنا من خلال نص هذه الرسالة أن السلطان سليمان القانوني لم يكن يدعي لقب الخلافة لا لنفسه ولا لأبيه السلطان سليم الأول، فهو كان يعول على القوة والقانون لا على الأوهام.

إن السلاطين العثمانيين الذين أعقبوا سليمان القانوني -وقد بدأت السلطنة في تراجع بطيء وتدريجي بعد أوجها- لم يدّعوا الخلافة، والدليل على ذلك أنهم لم يشيروا إلى هذه الصفة في كل ما هو رسمي، فمثلا في مسكوكاتهم لا نجد إشارة إلى "الخلافة". ولقد عاينت قطعة نقدية تعود إلى عهد السلطان مراد الثالث (1574-1595) بن السلطان سليم الثاني بن السلطان سليمان القانوني، وقد خط على هذه القطعة ما يلي: "مالك البرين والبحرين والشام والعراق خلد الله ملكه صاحب العدل المنيف السلطان مراد بن السلطان سليم".[10]

---

[9]) د. فليب حتي ود. أدورد جرجي ود. جبرائيل جبور، تاريخ العرب، ط 8، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1990، ص 810.

[10]) هذه القطعة النقدية معروضة في متحف/مكتبة جمعية الفتح (دار العدة) في قصر زناكة في فجيج (فكيـگ) جنوب شرق المغرب.

إن أقدم وثيقة تاريخية تشير إلى اسم سلطان عثماني مقرونا بلقب الخلافة، هي وثيقة معاهدة كوجوك قينارجه بين روسيا والسلطنة العثمانية بتاريخ 21 يوليو 1774، وكان ذلك السلطان العثماني هو عبد الحميد الأول. فقد انتهز المفاوضون العثمانيون فرصة مطالبة القيصرة كاترين بحماية المسيحيين الأرثودكس في السلطنة العثمانية، ليطالبوا بالمعاملة بالمثل، وجاء في نص وثيقة المعاهدة:"أما فيما يتعلق بالممارسة الدينية، فلما كان التتار يعتنقون الدين الإسلامي، ولما كان جلالة السلطان هو في نفس الوقت خليفة الإسلام الأعظم، فإن على التتار أن ينهجوا النهج الذي يتمشّى مع تعاليم دينهم دون مساس بالاستقلال السياسي والمدني الذي تقرر لهم...". وأول العثمانيون هذه الفقرة بأنها تعني تعيين السلطان لخان التتار وفق ما اعتاد عليه الخلفاء المسلمون في الماضي من إرسال كتاب التقليد للأمير المسلم وتسميتهم للموظفين الذين لهم علاقة عملية بالشريعة الإسلامية كالقضاة والمفتين.[11]

إذن مقابل تنازل السلطان عبد الحميد الأول عن سيادته على شبه جزيرة القرم، وإعطائه هذه الأخيرة استقلالها، "بايعته" القيصرة كاترين "خليفة" دون علم علماء الدين المسلمين ودون علم كل الأمة الإسلامية، وأعطته سلطة روحية على التتار، مع العلم أن تطبيق هذا البند الخاص بهذه السلطة لم يتم تفعيله، ولم يمارس السلاطين العثمانيون هذه الصلاحيات أبدا. ولما شاع مضمون وثيقة المعاهدة، اعتقد الغربيون أن منصب الخلافة يشابه ما هو موجود عندهم في نظامهم الكنسي، أي البابوية. وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى أن ما جاء في نص وثيقة المعاهدة حول الخلافة، كان ربما ما دفع المؤرخ دوسون المذكور

[11]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت / القاهرة 1982، ص166.

سالفا ـــ بما أن تاريخ طبع كتابه قريب من تاريخ توقيع المعاهدة ـــ إلى القول بخلافة آل عثمان وإلى البحث لها عن جذور، ومن ثمة ظهرت أسطورة تنازل المتوكل عن الخلافة لسليم الأول.[12]

كانت المحطة الأخيرة التي تعود فيها مسألة الخلافة العثمانية إلى الظهور بقوة وبشكل أوسع، هي الفترة الممتدة من النصف الثاني للقرن 19 إلى سقوط السلطنة العثمانية نهائيا. فقد عرفت هذه الفترة صراعات سياسية واقتصادية ساخنة بين القوى الغربية حول السلطنة العثمانية، وبلغت هذه الأخيرة أوج ضعفها، و لم تعد إمكانية القضاء عليها هي المطروحة، وإنما مسألة تقسيمها وما تثيره من مشاكل بين القوى الغربية هي التي أصبحت أكثر تعقيدا. كما ظهرت داخل السلطنة بنفسها تيارات قومية، تحاول الدفاع عن حقوقها بل وتتقدم بمطالب، إضافة إلى مشاكل داخلية أخرى. اعتلى في هذه الفترة عرش السلطنة عبد الحميد الثاني (1876-1909)، فرأى في سلاح الخلافة وسيلة سياسية لضرب الأطماع الأوروبية داخل السلطنة، وكذلك سلاحا لإسكات المعارضة السياسية العثمانية الداخلية، وقلب موازين القوى في علاقته مع الباب العالي، أضف إلى ذلك وسيلة للتدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطوريات الأوروبية التي كانت تضم بين ساكنتها مسلمين. فقد تعلم هذا الدرس الأخير من الأوروبيين أنفسهم، الذين كانوا يتدخلون في الشؤون الداخلية للسلطنة العثمانية بدعوى حماية المسيحيين العثمانيين.

يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته، وبالضبط في فقرة تحت عنوان "سلاح الخلافة":

---

[12]) نفسه، ص ص 166 ـــ 167.

نعم لم تكن لي الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية بمفردي، ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوبا مسلمة عديدة في آسيا، مثل إنكلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله. ولهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية، وكان لزاما عليّ ألا أستخدم هذا السلاح خارج حدودي حتى "اليوم المنتظر"، لأن محاولة كهذه لم تكن تفيد إخواننا في الدين، ولا بلادي. قررت استخدام قوتي كخليفة في وحدة بلادي وأمنها، كما قررت العمل على سلامة إخوتنا في الدين في الخارج ضد كل احتمال. تعطيلي الأسطول طمأن الإنكليز والفرنسيين، لكن وجود الخلافة في يدي كان يجعل الإنكليز يعيشون دائما في دوامة الاضطراب.[13]

يتضح جليا مما قاله السلطان عبد الحميد الثاني، أنه بادعائه الخلافة، لم يكن يريد إحياء دولة الخلافة كما عرفها المسلمون في العصور الغابرة، وإنما أن يجعل من شخصه زعيم المسلمين أينما كانوا، وبالتالي أن يجر من ورائه جيوشا تعد بالملايين، إن هو دعا في يوم من الأيام إلى الجهاد، وهذه الجيوش لا تحتاج إلى أسطول لنقلها، لأنها ستكون موجودة في عين المكان، فالهنود المسلمون في الهند والتتار المسلمون في روسيا.... إلخ، هذا على الصعيد الخارجي. أما على الصعيد الداخلي فكان الغرض هو إسكات الحركة المعارضة المطالبة بالإصلاحات على الطريقة الأوروبية، وأهمها خلال الفترة التيار العروبي والتيار التركي ممثلا في جمعية تركيا الفتاة. ومما يؤكد هذا هو أن عبد الحميد أبقى الإدارة العثمانية، والقوانين المسيرة للبلاد على الحالة التي وجدها عليها، أي

[13]) عبد الحميد الثاني (السلطان)، مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة د. محمد حرب، ط 3، دار القلم، دمشق 1991، ص 147.

أبقى السلطنة على نظامها التغريبي المستورد بعد تطبيق "التنظيمات الخيرية" المفروضة من طرف الدول الغربية.

تجدر الإشارة كذلك إلى أن عبد الحميد الثاني لم يعر مسألة البيعة أي اهتمام، بل قال أنا الخليفة وعليكم طاعتي. كما جاء في المادة الثالثة من الدستور العثماني الأول سنة 1876 (القانون الأساسي العثماني/المشروطية الأولى)، وبدون استشارة الأمة الإسلامية ما نصه " إن السلطة السنية هي بمنزل الخلافة الإسلامية الكبرى، وهي عائدة بمقتضى الأصول القديمة إلى أكبر الأولاد من سلالة آل عثمان." وجاء في المادة الرابعة من نفس الدستور ما نصه "إن حضرة السلطان، وهو حامي الدين الإسلامي بحسب الخلافة، وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها."[14] إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة افتتاح مجلس المبعوثين (البرلمان) الأول بتاريخ 4 ربيع الأول 1294 هـ/ 1877، لم يشر لا من بعيد ولا من قريب إلى الخلافة.[15]

إن هذا الغموض الذي ظل يحيط بمسألة "الخلافة العثمانية" جعل المواقف تتباين حولها سواء في الداخل أو في الخارج، وذلك بعد التسييس الذي دفع بدوره إلى الاستناد إلى المصلحة لاتخاذ موقف معين، كما أن هناك من المثقفين العثمانيين من لم يعر المسألة أي اهتمام.

---

[14]) الأمير شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه وعلق عليه حسن السماحي سويدان، ط 1، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/بيروت 2001، ص 714.

[15]) انظر نص الخطاب ضمن الأمير شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه وعلق عليه حسن السماحي سويدان، ط 1، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/بيروت 2001، ص 735- 742.

نجد من بين أكبر مثقفي الفترة عبد الرحمن الكواكبي، الذي خاض في الموضوع، وكان في البداية وقبل خروجه هربا من حلب، يعترف بخلافة عبد الحميد الثاني أو على الأقل يتظاهر بذلك. فهو في افتتاحية العدد الأول من صحيفته **الشهباء**، في سياق المطالبة بالمساعدة المالية عن طريق التبرعات لصحيفته، قال ما نصه:"... هذا، وأملنا وطيد في الحصول على المساعدة والتسهيلات اللازمة من أولياء أمورنا الفخام، في أيام دولة من تجلى كرسيَّ السلطنة الأسمى، بتجلي أنوار قمر خلافته العظمى، مولانا وسلطاننا الأعظم، الغازي عبد الحميد خان..".[16] ويصف السلطنة العثمانية في العدد الرابع من نفس الجريد بــ"مركز الخلافة الإسلامية".[17]

هكذا يتضح جليا أن الكواكبي كان يصرح علنا بخلافة عبد الحميد الثاني، وذلك قبل خروجه من حلب، وكان ذلك الخروج بسبب ما لقيه من اضطهاد على يد السلطات المحلية العثمانية في الولاية. ولكن بعد هروبه من حلب، وابتعاده عن أيادي عبد الحميد الباطشة، نجده في كل المنابر يطالب بخلافة عربية قرشية، وحدد مهام ومقر الخلافة وطريقة البيعة والشروط الضروري توافرها في الخليفة. بل في كتابه أم القرى يحاول تفنيد ادعاء كل سلاطين بني عثمان الخلافة، فيقول على لسان الأمير الهندي:

---

[16]) عبد الرحمن الكواكبي، افتتاحية جريدة **الشهباء**، ع 1، 10 أيار/مايو 1877، ضمن الأعمال الكاملة للكواكبي، إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1995، ص 113.

[17]) عبد الرحمن الكواكبي، إسلام الهند والدولة العلية، ضمن جريدة **الشهباء**، ع 4، 13 كانون الأول 1877، ضمن الأعمال الكاملة للكواكبي، ص 173.

... ولو أن حضرة السلطان المعظم [عبد الحميد الثاني] أخذ عليه تأييد الدين بما أمده الله به من القوة المادية بدون استناد إلى صبغة معنوية [الخلافة] لتمكن من أن يخدم دينه وملكه حقا خدمات مقبولة عند الله ورسوله مشكورة عند المؤمنين كافة [...] وأظنه قد قَرُب اليوم الذي يتنبه فيه، فيتروّى في الأمر فيعدل عن الاعتماد على غير الماديات، ويَضْرب على فم بعض الغشاشين المتملقين الخائنين، الذين ينسبون حضرته إلى ما لم ينتسب هو إليه، ويشيعون عنه دعوى ما ادّعاها قط أحد من أجداده العظام بوجه رسمي.

وهؤلاء الغشاشون يُغرون حضرة السلطان [...] فيجعلون تارة آل عثمان العظام يتصلون نسبا بعثمان بن عفان رضي الله عنه، وأخرى يرفعون نسبهم إلى أعالي قريش ويعطونهم حق الخلافة، مرة بالتنازل من العباسيين، وأخرى بالاستحقاق والوراثة، وآونة بالعهد، وأخرى بالبيعة العامة، وحينا بخدمة الحرمين الشريفين، ووقتا بحفظ المخلفات النبوية.

وكأن هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السلطان نظيرهم: دعيّ نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم السيادة [يقصد الصيادي وادعاءه النسب الشريف: ومن ثمة الاستلاء على نقابة السادة الأشراف في حلب وحرمان بيت الكواكبي منها] ومن المعلوم عند أهل الوُقوف، أن التلقب بالخلافة والإمامة الكبرى أو إمارة المؤمنين في آل عثمان العظام حدث في عهد المرحوم السلطان محمود [بل عبد الحميد الأول (1773- 1789) في إطار معاهدة كوجوك قينارجه 1774/7/21 مع روسيا]، حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحيانا تفننا في الإجلال وغلوا في التعظيم، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنيه وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعي أولئك الغشاشين، الذين يدفعون حضرة السلطان الحالي للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل

عنوان خلافة وهمية مقيدة في وضعها بشرائط ثقيلة، لا تلائم أحوال الملك، ومعرضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم. ولذلك، حضرات السلاطين أنفسهم لم يزالوا إلى الآن متحفظين عن التلقب بالخلافة رسميا في منشوراتهم ومسكوكاتهم، وإنما تمضغها أفواه البعض، فيلوكها التركي تعظيما لقومه، والعربي نفاقا لسلطانه، والمصري اتّباعا للمرائين، والهندي اعتزازا بالوهم، والأجنبي هُزُؤا ومكرا، بخلاف حضرات سلطان مراكش وأمير عُمان وإمام اليمن، المتنازعين في هذا المقام رسميا، المتقاطعين لأجله، على أنهم قد شعروا أو كادوا يشعرون بضررهم السياسي في ذلك [...].[18]

يتضح لنا من خلال هذا النص الموقف الواضح والأخير للكواكبي، ويشرح فيه الدوافع التي جعلته يتخذ هذا الموقف، والدوافع التي جعلت حاشية السلاطين (الغشاشين حسب قوله) تتخذ موقفا مغايرا، كما يتطرق فيه إلى الأضرار التي قد تنجم عن ادعاء السلاطين الخلافة.

هناك مثقف عربي عثماني مسلم آخر لم يعترف بخلافة آل عثمان، وهو إبراهيم بك المويلحي، وإن كانت دوافعه تختلف عن دوافع الكواكبي. فقد نشر المويلحي عام 1879 في مدينة نابولي جريدة باسم **الخلافة**، وهي صحيفة أسبوعية سياسية دينية باللغتين العربية والتركية. وقد نشرها لما سافر بصفة كاتب لإسماعيل باشا، بعد خلع هذا الأخير من خديوية مصر. فأراد المويلحي بذلك إظهار إخلاصه لسيده المخلوع، والتنديد بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي وافق الدول الأوروبية على عزل الخديوي المشار إليه. وكتب المويلحي على صفحات جريدته أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربي، وأنه انتقل بلا

[18]) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، ضمن الأعمال الكاملة للكواكبي، إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1995، ص ص 396 ــ 398.

حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك. وكان يقول أن خديو مصر هو أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية، لأن مصر كانت مقرا للخلافة من قبل. فاضطرب السلطان عبد الحميد الثاني لذلك، وخاف من امتداد هذا الفكر بين الأمة العربية الإسلامية التي يتألف منها القسم الأكبر من سكان السلطنة العثمانية. فطلب من سفيره في باريس أن يعمل على توقيف الجريدة المذكورة، بكل الوسائل الفعالة قبل أن ينتشر خبرها بين المسلمين. وكان الدكتور لويس صابونجي (وهو كذلك مثقف وصحفي عربي عثماني) موجودا حينئذ في العاصمة الفرنسية، فأشار على السفير العثماني بأن أفضل وسيلة لبلوغ الغاية المقصودة هي إغراء المويلحي بالمال. فتبع السفير نصيحته وهكذا توقف إبراهيم المويلحي عن استئناف نشر جريدته بعد صدور العددين الأول والثاني منها.[19]

ودائما في موضوع "الخلافة العثمانية" نشير إلى موقف رافض لها كذلك، وهذه المرة بدوافع مغايرة، وهو موقف مسيحي عربي عثماني الدكتور لويس صابونجي (القس سابقا).[20] لقد أصدر الصابونجي صحيفة في يناير 1881 بإنكلترا، باسم الخلافة كذلك. وهي صحيفة سياسية ناطقة باللغة العربية، وجعل شعارها "حرية واستقلال ونجاح وإقبال". وقد تبرع بعض الممولين الإنكليز بعشرة آلاف جنيه لنشر هذه الجريدة، التي لم يعرف لها مثيل في تشخيص أمراض الدولة العثمانية، ونشر الأخبار الجارحة عن السلطان ووزرائه.

---

[19]) فيليب دي طرازي (الفيكونت)، تاريخ الصحافة العربية، ج 2 من المجلد الأول، المطبعة الأدبية، بيروت 1913، (أعادت دار صادر نسخ هذه الطبعة) ص 264.

[20]) انظر في ترجمة لويس صابونجي: يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج 2، مطبعة سركيس بمصر 1928. (قامت دار صابر بيروت بنسخ هذا المؤلف بدون تاريخ، وهي النسخة التي اعتمدت عليها) ص ص 1177- 1178.

وكانت في الوقت ذاته تترجم إلى اللغات التركية والفارسية والهندية حتى تقرأ من طرف جميع المسلمين. ومن أهم مقالاتها التي تستحق الذكر هي: "مسألة الخلافة والمسلمون" ثم "الخلافة في آل عثمان" وكذلك "حي على الاستقلال أيها الأبطال" ومنها "الخلافة والقانون الأساسي" إلخ. فلما اطلع عليها موزوروس باشا السفير العثماني في لندن، بعث ببعض نسخ منها إلى السلطان عبد الحميد الثاني، فقلق السلطان خوفا من انتشار أفكار الجريدة في العالم الإسلامي، فأرسل أمرا إلى السفير بأن يقنع منشئ الجريدة ويطمعه بالمال لإبطالها. إلا أن السفير فشل في مهمته، لأن الدكتور صابونجي أبى أن يذعن لإرادة السفير مصرا على إصدار الجريدة بدعوى أن أمراء المسلمين كانوا يعضدونه في هذا السبيل. وقد احتجبت جريدة **الخلافة** ولم تكمل سنتها الأولى، إذ أبدلها منشئها بجريدة "الاتحاد العربي"،[21] ذات التوجه العروبي.

هناك مواقف مغايرة للتي جئنا على ذكرها، وهي تلك المواقف التي كانت للعامة من الرعايا العثمانيين، فهؤلاء صدقوا أن السلطان خليفة، وربما لم يفرقوا بين الخلافة والسلطنة، أو ربما لم يطرحوا السؤال أصلا. كما أن المثقفين الذين كانوا يعيشون في كنف السلطنة العثمانية، وتحت قبضة سلاطينها، تحاشوا الخوض في المسألة. ولكن المثقفين العثمانيين الذين دافعوا عن خلافة آل عثمان وعن وعي، فهم أولئك الذين رأوا من وراء ذلك مكسبا ما. ونعطي هنا مثال المصريين، وبخاصة رواد الحركة الوطنية الذين استعملوا الخلافة العثمانية سلاحا في وجه المحتل الإنكليزي. فمثلا هناك محمد فريد بك، الذي انخرط مبكرا في الحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال الإنكليزي، و الذي شغل منصب رئيس

[21]) فيليب دي طرازي (الفيكونت)، تاريخ الصحافة العربية، ج 2 من المجلد الأول، المطبعة الأدبية، بيروت 1913، (أعادت دار صادر نسخ هذه الطبعة) ص ص 251- 252.

الحزب الوطني بعد وفات مصطفى كامل سنة 1908، فهو يقول في خضم حديثه عن تنازل المتوكل لسليم عن الخلافة:" ومنذ ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلا".[22] ويقول في مكان آخر:"وفي أوائل شهر سبتمبر سنة 1517 سافر السلطان سليم من القاهرة عائدا إلى القسطنطينية التي صارت من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية العظمى".[23] ونشير هنا إلى أن مصر، وبالرغم من الاحتلال الإنكليزي، ظلت من الناحية القانونية -ولو اسميا- ولاية عثمانية.

أما على المستوى الخارجي فقد كان هناك موقفان: أولهما متشبث بالخلافة العثمانية، وهو الذي اتخذه مسلمو الهند. والثاني لا يعترف بخلافة آل عثمان، وهو الذي اتخذته البلدان الإسلامية ذات السيادة.

- لقد كان مسلمو الهند أكثر المسلمين تمسكا وإيمانا بخلافة السلاطين العثمانيين، وذلك لسبب واضح يتمثل في البحث عن منقذ من تعامل المحتل الإنكليزي معهم، والاستناد في ذلك إلى أكبر قوة إسلامية آنذاك وهي السلطنة العثمانية. فقد كان الإنكليز "كثيرا ما يستولون على أملاك المسلمين، ويعطونها للهنادك، وكثيرا ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين، ويعينون بدلا منهم الهنادك" وقد كان ذلك إرضاء للهندوس الذين يشكلون الأغلبية العددية.[24]

---

[22]) محمد فريد بك (المحامي)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط 2، مكتبة الآداب، القاهرة بدون تاريخ، ص 76.

[23]) نفسه، ص 77.

[24]) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1981، ص 516 وما يليها.

ولهذا نجد مسلمي الهند يقدمون المساعدات المالية السخية للسلطنة العثمانية، خلال حربها التي أعلنتها روسيا على السلطنة بتاريخ 24 أبريل 1877.[25]

ـ أما البلدان الإسلامية ذات السيادة، فكما جاء في نص الكواكبي المشار إليه سالفا وعلى لسان الأمير الهندي، فإن سلطان المغرب وإمام اليمن وأمير عمان كانوا لا يعترفون للسلطان العثماني بالخلافة، وهذا شيء لا يحتاج إلى تأكيد، وكذلك القول بالنسبة لشاه بلاد فارس.

وختاما لهذه الورقة، نقول بأن السلاطين العثمانيين أرادوا ركوب سفينة كانت قد غرقت، وكانوا بمثابة الغريق الذي تشبث بغريق، والدليل على ذلك أنهم لم يولوا الخلافة أدنى اهتمام أيام كانت مدافعهم تصنع قوتهم وسلطتهم، ولم يتذكروا أن هناك شيئا اسمه الخلافة الإسلامية إلا بعد أن أصبح الأوروبيون يقتطعون من جسم الأمة الإسلامية كل يوم جزءا، وبعد أن نعتت سلطنتهم بالرجل المريض....فتذكروا فزاعة اسمها "الخلافة"، فنصبوها صوب أعين الأوروبيين الذين كانوا قد امتلكوا الحقل الذي نصبت فيه هذه الفزاعة. أما على المستوى الداخلي، فقد نسي السلاطين العثمانيون أن ولاء رعاياهم ووحدة سلطنتهم كانا في السالف بسبب عدلهم، وبسبب إدارتهم التي كانت فعالة وصحية في خدمة مصالح الرعايا... وبعد أن جهرت رعاياهم بالشكوى وطالبت بالإصلاح، وبدل التعجيل بالإصلاح الذي هو إسمنت الأمة، أجاب السلاطين العثمانيون رعاياهم بأنهم خلفاء والطاعة لهم يجب أن تكون عمياء.

---

[25]) للمزيد من التفاصيل يراجع مقال لعبد الرحمن الكواكبي، إسلام الهند والدولة العلية، ضمن جريدة الشهباء، ع 4، 13 كانون الأول 1877، ضمن الأعمال الكاملة للكواكبي، ص ص 173 - 174.

الدولة العثمانية في مواجهة الصهيونية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

ذ. محمد أمحزون
كلية الآداب – مكناس

كانت فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر المحور المركزي لنشاطات الصهاينة الغربيين الرامية إلى تسليم "أرض الميعاد" إلى أتباعهم في العقيدة، فقد كانت فلسطين آنذاك جزءاً من المقاطعات الآسيوية للدولة العثمانية، يسكنها رعايا السلطان العثماني من العرب.

وقد اعترف هرتزل الصحفي اليهودي النمساوي، وهو الشخص الذي ارتقى بالحركة الصهيونية إلى عنصر فاعل في العلاقات الدولية بعد أن كانت عبارة عن مجاميع مفككة غير متجانسة، بأنّ القرار هو بيد السلطان فقط.

ولغرض استدراج السلطان عبد الحميد إلى مشروعه هذا، قام هرتزل بخمس رحلات إلى إستانبول خلال الفترة من 1896 إلى 1902م (1314 – 1320هـ)، استطاع أثناءها الوصول إلى الباب العالي وإلى السلطان، وناقش المسألة مع مختلف المسؤولين، ومن ضمنهم رئيس الوزراء، بل حضي بمقابلة السلطان عبد الحميد بشخصه [1].

[1] – هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية، ج 1، ص 313.

ولإغراء السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح لليهود بإقامة قرى يهودية في فلسطين، اقترح هرتزل عليه تقديم الخدمات والتسهيلات اللازمة في مسألة الديون العثمانية العمومية، وسيتم تقديم الضمان الكافي بهذا كتابة. وكان المصرفي الصهيوني المشهور روتشليد وراء هذا الأمر[2].

ولكن هرتزل اكتشف بعد مضي فترة قصيرة بأن السلطان ضد إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وبذلك ((أصبح عبد الحميد الثاني في نظر هرتزل: "سلطان ماكراً جدّاً، خبيثاً جدّاً، ولا يثق بأحد)) [3].

وكان السلطان عبد الحميد يرى ضرورة عدم توطين مهاجرين يهود في فلسطين حتى يبقى العنصر العربي المسلم محافظاً على تفوقه الطبيعي فيها. وكان من رأيه أيضا

أنه إذا سُمح لليهود بالتوطن في فلسطين، فإنهم سيستطيعون في وقت وجيز جدّاً أن يجمعوا في أيديهم وسائل القوة في المكان الذي يستقرون فيه، وفي هذه الحالة كما يقول السلطان: "سنكون قد وقعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين" [4].

وعبّر عن رأيه في الحركة الصهيونية وفي هرتزل بقوله: "لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين ، بل إنهم يريدون إنشاء

R. Pataï: The complete Diaries of T'heodor Herzl, p 909.

2 – محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ص 41 – 42.

3 – مذكرات السلطان عبد الحميد، ص 28.

4 – المرجع السابق نفسه، ص 29.

حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين لهـــم، وإني أفهـــم جيـــدا معـــنى تصوراتهم هذه" [5].

على أن موقف السلطان هذا لم يكن طارئاً؛ فإن العثمانيين أخذوا الحركة الصهيونية على محمل الجدّ، وأدركوا خطورتها منذ البداية. ويمكن القول بأن السلطان عبد الحميد بنفسه هو الذي وضع الخطوط الأساسية للسياسة العثمانية في مواجهة الحركة الصهيونية، حيث كان مصراً على منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين بأي ثمن [6].

ففي (28) يونيو و (7) مايو من عام 1890م (1308هـــ)، أصـــدر إرادتين سلطانتين بـــ: ((عدم قبول الصهاينة في الممالـــك الـــشاهانية (الأراضي العثمانية) وإعادتهم إلى الأماكن التي جاؤوا منها)) [7].

بالإضافة إلى أنه طلب من وزارائه أن يدرسوا ويحيطـــوا بعنايـــة بكافة جوانب المسألة في اجتماعاتهم، وأن يخرجوا بـــسياسات محـــددة ومتكاملة في الوقت نفسه، لكي يواجهوا بها خطط ومشاريع الصهيونية على الصعيد المحلي والدولي [8].

وقد تضمن البرنامج النهائي الذي تمخضت عنه اجتماعات مجلس الوزراء الذي وافق عليه السلطان العثماني: أربع مجاميع من الـــسياسات يوزع تطبيقها على عدة وزارات[9].

---

5 - المرجع السابق نفسه، ص 29.

6 - محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 42.

7 - المرجع السابق نفسه، ص ص 42 – 43.

8 - بلند كمال أوك: الحركة الصهيونية ووزارة الخارجية العثمانية في عهد عبد الحميد الثـــاني، ص ص 3 – 4 .

9 - تحسين باشا: عبد الحميد، ص ص 7 – 9.

ففي الوقت الذي كان على وزارة الخارجية أن تقنع القوى العظمى بعدم مدّ يد المساعدة إلى الحركة الصهيونية، كانت وزارة الداخلية مسؤولة عن إيجاد الطرق الكفيلة بعدم السماح للصهاينة بالدخول إلى البلاد [10].

وبالرغم من هذا استطاع بعض اليهود التسلل إلى فلسطين، الأمر الذي ألقى على عاتق رئيس الوزراء شخصياً مهمة لتدبير الوسائل الكفيلة للحيلولة دون حصول المتسللين على حماية أجنبية من الدول الفاعلة على الساحة الدولية، مما يؤهلهم للتمتع بقانون الامتيازات الأجنبية. بالإضافة إلى هذا، كان على مديرية تسجيل الأراضي أن تمنعهم من حيازة الأراضي في فلسطين ونواحيها [11].

وعندما باتت الصهيونية تحتل وجه الصدارة في أعقاب المؤتمر الأول الذي انعقد في بال بسويسرا عام 1897م (1315هـ) [12]، وظف الدبلوماسيون العثمانيون في الخارج كل الإمكانيات لتغذية العاصمة بالمعلومات المفصلة حول التطور الذي لحق بمجموع الحركة الصهيونية. ففي الوقت الذي كانت فيه التقارير المفصلة وقصاصات الصحف تصل تباعاً إلى إستانبول، حاول الدبلوماسيون العثمانيون أن يستنطقوا كبار الشخصيات الصهيونية، وقاموا حتى بإرسال عملاء متنكرين إلى مؤتمراتها[13].

---

10 – بلند كمال أوك: الحركة الصهيونية، ص 4.

11 – المرجع السابق نفسه، ص 4.

12 – زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص 188.

13 – محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 42.

ومنذ البداية، كان الممثلون الدبلوماسيون للدولة العثمانية لا ينظرون بعين الارتياح إلى الحركة الصهيونية؛ ففي عام 1888م (1306هـ) كتب علي فروخ بك السفير في واشنطن بأن الصهيونية تمس بشكل حيوي السيادة العثمانية" (14).

وفي 1900/08/17م (1318هـ) كتب السفير في برلين علي توفيق باشا إلى الباب العالي قائلا: "يجب أن لا تكون لدينا أية أوهام بخصوص الصهيونية، وبالرغم من أن المؤتمرين عالجوا عموميات غامضة حول مستقبل الشعب اليهودي، فإن الصهيونية ترمي في الواقع إلى إقامة دولة يهودية كبيرة في فلسطين تطمح إلى التوسع على حساب البلدان المجاورة" (15).

وكتب السفير العثماني في لندن أنتوبولوس باشا محذراً الباب العالي: ((بأنه مع ازدياد عدد المستعمرات في فلسطين سوف لن يرضى المستعمرون الصهاينة بالعيش تحت ظل قانون البلدية العثمانية)) ، ثم أضاف: "بأن الصهاينة خلافاً لما قالوه في مؤتمر بال سوف يضغطون باتجاه الحصول على اعتراف دولي بهم تحت مظلة قانون الأمم" (16).

وهذا يعني أن الدبلوماسيين العثمانيين وضعوا الحركة الصهيونية ومخططاتها تحت المجهر.

---

14 - بلند كمال أوك: الحركة الصهيونية، ص 4 (مصدره: أرشيف وزارة الخارجية العثمانية:332/17، رقم 9597/81).

15 - المرجع السابق نفسه، ص ص 4 – 5. (مصدره: أرشيف وزارة الخارجية العثماني: 332/17، رقم 1683/136).

16 - المرجع السابق نفسه، ص 5، (مصدره: أرشيف وزارة الخارجية العثمانية: 332/17، رقم 216/ 23598).

ولأجل ذلك، تم اتخاذ خطوة أخرى وهي: إقناع القوى الكبرى بسحب تأييدها للحركة الصهيونية. وقد لخصت السلطنة العثمانية الدعوة لهذه القوى وهي: ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، بأن تتخلى عن فكرة إدخال اليهود كدولة في المجتمع الدولي؛ لأن هذا المشروع الذي يتضمن خلق دولة داخل دولة في قلب الإمبراطورية العثمانية سوف يؤدي حتماً إلى تدمير تركيا وتعريض التوازن الدولي للخطر [17].

وقد أثمرت هذه الدعوة في ذلك الحين، لأن الدول العظمى وقتذاك كانت لها مصلحة في الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية – ولو شكلا – بسبب التنافس الاستعماري المحموم بين الدول الأوربية في ذلك الوقت.

وكانت الدعاية العثمانية بهذا الخصوص من القوة بحيث كتبت صحيفة Allegemeine Zetung الألمانية (لازالت تصدر إلى الآن): ((عش ودع غيرك يعيش، هذه هي سياسة الدول الكبرى، ليس فقط إزاء اليهود، بل إزاء الأتراك أيضاً)) [18].

ولذلك ارتأت بريطانيا المتحمسة أكثر من غيرها للمشروع الصهيوني أن تعرض على هرتزل وأتباعه – خوفاً من تعريض التوازن الدولي للخطر – مناطق أقل حساسية مثل أوغندا [19].

---

17 – المرجع السابق نفسه، ص 6، (مصدره: أرشيف وزارة الخارجية العثمانية: 17: 332، رقم: 136 /1683.

18 – بتاريخ 1900/08/11م.

19 – هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية، ج 1، ص 34.

وزاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص 188.

ثم قام العثمانيون بخطوة أخرى وهي: إقناع اليهود في العالم بواسطة اليهود أنفسهم بأن خطط هرتزل ليست فحسب غير مقنعة، بل غير ممكنة. وها هنا استفادوا من الخلافات المذهبية بين اليهود، لجعل نسبة اليهود الذين تستقطبهم الحركة الصهيونية في صفوفها أقل، مما يسلبها مصدر قوتها الأساسية.

فاليهود التقليديون (الأرثوذكس) كانوا يعتقدون أن مخلّصا أو مسيحيا فقط يستطيع أن يعيد فلسطين إليهم. وبناءً على هذا فإن هرتزل الذي عيّن نفسه في هذا المنصب ما هو – في نظرهم – إلا محتال. فهو لا يتدخل في مشيئة الله تعالى فحسب، بل إنه يعد اليهود بشيء لا يمكن وهو المخلوق أن يحققه [20].

أما الإصلاحيون اليهود، فلم يكن رأيهم في ذلك الوقت بالحركة الصهيونية إيجابيا تماماً. فقد كانوا في غرب أوربا والولايات المتحدة لا يعتقدون بأن اليهود يشكلون شعباً بل ديناً. وكانوا يخشون في حال نجاح هرتزل في إقناع العثمانيين بالسماح لليهود بإقامة دولة في فلسطين، أن يتعرض موقعهم للتهديد عبر موجة من الاضطهاد، إذ قد تصر الدول التي يعيشون في ظلها على تهجيرهم إلى فلسطين ([21]).

وكإجراء أخير لمنع الصهاينة من التسلل إلى فلسطين، أمرت الخارجية العثمانية هيأتها الدبلوماسية بعدم منح تأشيرات دخول لليهود إلى فلسطين. وقد ووجه اليهود الذين تسللوا إلى الأراضي العثمانية بدون تأشيرات الدخول بأن السلطات الحدودية والجمركية كانت تعلم بهم

---

20 – بلند كمال أوك: الحركة الصهيونية، ص 8.

21 – المرجع السابق نفسه، ص 8.

قبل وصولهم. وكانت الشرطة العثمانية في أغلب الأحيان تعرف مسبقا البلد وتاريخ الإقلاع وعدد الصهاينة على ظهر السفينة حتى قبل أن تصل شواطئ حيفا ويافا، وكان هذا الأمر يتم بالتنسيق مع الممثليات العثمانية في الخارج، التي كانت لها شبكات لجلب المعلومات ومراقبة نشاطات الصهاينة. ومتى ما علموا بأن مجموعة من الصهاينة في طريقها إلى فلسطين أخبروا السلطات العثمانية حالاً ببرقيات الشفرة. وكم كان من المدهش حقا أن تتمكن وزارتي الخارجية والداخلية من تحقيق هذا المستوى الرفيع من التنسيق والتعاون والمتابعة الدقيقة ([22]).

ولكن من الملاحظ رغم هذا كله نجاح الصهاينة في إقامة دولة لهم في فلسطين. وهذا يعود إلى عدة عوامل:

الأول: استغلالهم لقانون الامتيازات الأجنبية، حيث اتبعوا سياسة ثابتة في رفضهم للجنسية العثمانية، ولجوئهم إلى حيازة جنسيات أجنبية، لكي يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للقوى الكبرى. وبعد أن يحصل المهاجرون على وثائق حماية بطرق غير مشروعة يعترف بهم القناصلة الغربيون كرعايا لهم ([23]).

الثاني: خلع السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم بانقلاب عسكري خطط له الأوربيون بتنسيق مع عملائهم في جمعية الاتحاد والترقي. وكان لليهود بطبيعة الحال دور في هذا الانقلاب ([24]).

[22] - المرجع السابق نفسه، ص ص 8 – 9.

[23] - المرجع السابق نفسه، ص 9.

[24] - للتوسع انظر: سليمان بيومي: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص 272 وما بعدها.

يقول الكاتب التركي فوزي طوغاي: ((إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة اليهودية بهذا الشكل المعادي، كان معناه أن يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه، ليس هذا فقط، بـــل وبالتـــالي في هـــدم الدولـــة العثمانية"([25]).

الثالث: أكبر خطأ ارتكبه الاتحاديون الأتراك هو دخـــولهم في الحـــرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور ضد الحلفاء، بدل التزام الحياد الذي كان في مصلحة الدولة العثمانية الضعيفة الآيلة إلى السقوط، مما عجل في تفكيك أوصالها، باتفاق ثلاث دول – بريطانيا وفرنسا وروسيا – على تقسيم أملاكها بينها عبر ما يسمى اتفاقية: سايكس – بيكـــو وزيـــري خارجية بريطانيا وفرنسا.

وكانت فلسطين من نصيب بريطانيا التي مهدت عمليـــا لإقامـــة الكيان الصهيوني فيها عن طريق فتح باب الهجرة على مـــصراعيه أمـــام جحافل اليهود المستوطنين.

فقد نشرت حكومة الانتداب في أغسطس إحصائية تكشف عن حقيقة هامة، وهي أنه ما بين عام 1922م (1341هـــــ)- وعـــام 1937م (1356هـــ) ، تضاعف عدد المسلمين مرة واحدة نتيجة الزيادة الطبيعيـــة في عدد السكان بالتوالد، بينما تضاعف عدد اليهود حوالي ثمان مرات، مما يكشف عن سياسة الاستيطان المكثفـــة الـــتي انتهجتـــها الحكومـــة البريطانية.

وهذه بعض الإحصائيات:

---

25 – مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد، ص 555نقلا عن: مجلة بيوكطوغو التركية بتاريخ 1947/05/02م.

في 1918م (1337هـ) كانت نسبة اليهود من حيث عدد السكان 10% فقط ، ونسبة ما يملكون 2.5% . وفي عام 1948 م (1368 هـ) أصبح الكيان الصهيوني يمتلك 20850 كلم^2 من مساحة فلسطين أي حوالي 77,4% من المساحة الكلية .

ومما يوضح أن الصهاينة تنبهوا منذ وقت مبكر إلى التغلغل في النسيج السياسي للدول الكبرى ، واختراق مراكز صنع القرار ، هو أنه في سنة 1917م (1336هـ) كانت نقطة الالتقاء الوحيدة بين الرأسمالية والشيوعية هي : تقديم وعد لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، وبذلك حققت الصهيونية انتصارين في اتجاهين مختلفين وبقوتين متضادتين [26] .

فقد أدلى وير خارجية بريطانيا James Arthur Belfour بتصريح خطير في مجلس العموم البريطاني في شهر نوفمبر 1917م –1336هـ جاء فيه: ((إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق حلمه [27] .

وفي روسيا عندما وصل البلاشفة إلى سد الحكم في أعقاب نجاح الثورة البلشفية أصدر لي بن إعلانا يعد فيه بتأييد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، واتخذ الخطوات العملية لذلك ، وهي مذكورة بالتفصيل في الفصل الخامس من كتاب المؤلف : ((تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية)) [28].

---

[26] أنظر كتاب المؤلف : تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية ، ص68.

[27] زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، ص196.

[28] ص ص 68-73 .

وفي الختام، أعود قليلا إلى الوراء لأقول بأنه في 1911م (1329هـ) بعد أن رأى السلطان عبد الحميد بأن جهود حكومته قد ذهبت هباء، وكان مخلوعا منفيا في ذلك الوقت ، قال لطبيبه الخاص ، بأن انتصارات الصهيونية في فلسطين ما هي إلا البداية، وهي مقدمة لتحقيق هدفهم النهائي حيث قال: ((إنني متأكد بأنهم مع الوقت سوف ينجحون في خلق دولتهم في فلسطين))[29].

[29] بلند كمال أوك : الحركة الصهيونية ، ص10.

الأتراك ومؤسسة الجيش منذ بداية
الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول

ذ. محمد تضغوت
كلية الآداب – مكناس

لعب الأتراك في تاريخ الشرق الإسلامي دورا فعالا في حوادثه إبان الفترة الأولى التي احتووا فيها الخلافة وتحكموا في أجهزتها وتوجيه مسارها الاقتصادي والسياسي بوجه عام.

وبالرغم من هذا الدور فإن الدراسات المعاصرة التي اهتمت بشأنهم جاءت شحيحة ومبعثرة، من أجل ذلك تأتي هذه الدراسة لإبراز الأثر السياسي الذي بصموا به أجهزة الخلافة، محددين المرحلة الأولى من بداية الفتح لتركستان إلى نهاية الحقبة العباسية الأولى.

ومشروع البحث في هذه الحقبة له ما يبرره، فهي في اعتقادنا الحقبة الأكثر غموضا وإبهاما مقارنة بباقي الحقب اللاحقة التي طغى فيها العنصر التركي وتمكن من تأسيس دول مستقلة بعد احتوائه الخلافة والإجهاز على أدوارها.

ونحسب ان ذلك التأثير راجع إلى أصولهم وتربيتهم وطبيعة تكوينهم في مجال اعتادوا العيش فيه بطلاقة وحرية، فضلا عما خلفه الفتح في نفوسهم من آثار حنكت تجربتهم وطبعتها بطابع خاص ومتميز.

فبالنسبة لأصل الأتراك، فإن الروايات لا تسعف كثيرا بسبب ما اعتراها من تضارب واختلاف. وإن كان المؤرخون الأقدمون يجمعون على إرجاعهم

إلى "ترك بن يافت بن نوح"[1]، واستندوا في قولهم على ما جاء في الروايات القديمة، خصوصا تلك التي وردت مفصلة في التوراة.

ومثلما اختلف الدارسون في أصولهم، اختلفوا أيضا في تحديد مواطنهم الأولى، فقد ذهب "الكاشغري"[2] إلى أن مصطلح "الترك"، يدل على عدة معاني، منها أنه اسم لبلد بإقليم "تركستان"، كما ذكر أنه يعني "التوسط بين الأشياء"[3].

ويستنتج "بارتولد" من التسمية "ترك" أنها تعني الجماعة المتحدة في تقاليدها[4]، وأضاف "واطسون" أن تلك الجماعة تتصف بالقوة والبأس، ويحتمل أن يكون الاسم اسما لقبيلة مستقلة أو أسرة حاكمة.ويورد "الجاحظ" رواية أسطورية تفسر معنى الكلمة (ترك)، ولكن ذات دلالة تاريخية متميزة، فقد ذكر بأن ذا القرنين (الإسكندر) حينما استعصى عليه فتح بلادهم، قال لجيشه، اتركوهم، فسموا بهذا الاسم[5].

وذهب "كتابجي" إلى أن المصادر الصينية القديمة، كانت تعرف تلك الشعوب باسم: "تو ــ كيو"[6]، وهو تحريف لكلمة "توكيو" لعدم وجود الراء في لغتهم، وصعوبة التلفظ به في لسانهم.

---

[1]) – الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص. 102.
– ابن خلدون، تاريخ العبر ، ج1، ص. 8.

[2]) كتابجـــي: الترك في مؤلفات الجاحظ، ص. 26. دار الثقافة بيروت 1972، نقلا عن الكاشغري: ديوان الترك، ج1، ص. 297.

[3]) نفس المرجع والصفحة.

[4]) انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص. 28، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، تحقيق: إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلوـــالمصرية، القاهرة، 1958.

[5]) انظر: الرسائل ، ج1، ص. 76.

[6]) المرجع السابق، ص. 24.

ومهما كان الاختلاف، فالثابت أن الأتراك هم من بين الشعوب الأسيوية، ينحدرون من جد أعلى، قد يكون هو "ترك"، كما سبق ذكره، وأن منطقة "تركستان"[7] سميت باسمه.

وبإجماع القدامى والمحدثين، فإن آسيا الوسطى تعتبر الموطن الأصلي للأتراك، وهي عبارة عن منطقة شاسعة، قدرها "الكاشغري" بخمسين ألف فرسخ عرضا[8]، كما حددها الهمداني[9] ابتداء من طرف ماء جيحون وسيحون غربا إلى حدود بلاد الشرق، وانتهاء بصحراء القبجاق إلى غاية نواحي جورجيا.

ويتضح أن هذا الموطن يتخذ شكل شبه منحرف، ينتهي جنوبا بالهمالايا ومن الجنوب الغربي بهضبة البامير، وغربا بتيان تشان، ومن الشمال بجبال الالتاي وستانوفوي، وشرقا بجبال كنجان وكونكور. وهذه المنطقة الشاسعة متباينة التضاريس ومتنوعة المناخ[10] حددت بالتالي طبيعة السكان وأثرت في وأوصافهم الجسمية التي كثيرا ما تحدث عنها الجاحظ وفصلها[11].

---

7) انظر: الموسوعة الإسلامية (مادة: تركستان)، ص. 209.

8) المصدر السابق، ج2، ص. 31.

9) انظر: جامع التواريخ، ج1، ص. 212، تحقيق : يحيى الخشاب، دار الكتب العلمية، 1 بيروت 1960.

10) نفسه، ج2، ص. 212.

11) وصفهم الجاحظ بقوله "الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش، وهو أعراب العجم... لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولا الفلاحة ولا الهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكان همهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها".

انظر: رسائل، ص. 51.

ومن أشهر القبائل التركية التي عرفها القرن الثالث قبائل "التغزز"، و"الطغرغر"، و"الخزلقية"، والغز"، و"الغور" والخزر"، و"البجناكية"، كما فصلها ابن خلدوزن[12] والمسعودي[13]، وقد أوصلها "الكاشعري"[14] إلى عشرين قبيلة.

وهذه القبائل متعددة الفروع تشمل على أفخاذ بحكم الرابطة الدموية والولاء للقبيلة الأم. والملاحظ أن المجموعات القبلية اتخذت مواطن جغرافية متباينة داخل آسيا الوسطى، حددت أنماط حياة ساكنتها وصقلت سلوكهم وطبائعهم التي جبلت على تحمل المشقة والصبر والمثابرة[15].

ومن الصعوبة بمكان أن يسعى الدارس إلى استقصاء الخصائص والتقاليد التي طبعت وميزت حياة كل قبيلة على حدة، نظرا لتشعب بطونها، وتنوع مجال ومضارب إقامتها، وإن كان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض الخصائص المشتركة التي ميزت حياة تلك القبائل ولا سيما في مرحلة البداوة. إذ من المعلوم أن القبائل التركية عاشت حياة منظمة تتسم بالاستقلال والانضباط لأوامر الرئيس، الذي غالبا ما يختار من بين شجعان القبيلة وأثريائها.[16]

وكانت حياة القبائل، مطبوعة بالترعات والحروب من جراء تنافسها على السيادة ومناطق الكلإ والخصب. ولا غرو فقد اشتهرت قبيلة "البجناكية" بترحالها الدائم[17]، واصطدمت بقبائل الغز والخزر والصقالبة مرات عديدة.[18]

---

12) انظر: تاريخ، م2، ص. 17-19.

13) انظر: التنبيه والإشراف، ص. 88.

14) التفاصيل في الموسوعة، ج5، ص. 47.

15) الجاحظ: رسائل، ص. 51.

16) ابن خردادبه: المسالك والممالك، ص. 31، مطبعة: أبريل، ليدن 1306هـ.

17) كتابجي: المرجع السابق، ص. 34.

والظاهر أن قساوة البيئة، وشظف العيش قد طبع سلوكهم وحياتهم، وحدد نشاطهم وجعل منهم جماعات غير مستقرة جبلت عن الغزو والإغارة[19]، إذ كثيرا ما كانت تندفع في اتجاه التخوم والبلاد المجاورة للاستحواذ على الغنائم والأسلاب.[20] ومالوا أحيانا إلى شبه استقرار، فأسسوا دولا مستقلة ذات صبغة عسكرية كانت تدخل في صراعات ومناوشات وحروب طويلة مع الدول المجاورة، ولا سيما مع الفرس والصين[21].

وقد سجل ابن خلدون[22] عددا من الحروب التي وقعت فيما بين الترك والفرس منذ زمن سحيق، مبرزا أنها كثيرا ما اتسمت بطابع العنف والاستنـــزاف، وهذا ما حمل المسعودي إلى القول بأنها كانت تسمى "بيكار" ومعناها "الإجهاد" حسب تفسيره[23]. وحسبنا في ذلك إقدام أهل فارس على إقامة بعض الحصون وتشييد الأسوار على الحدود الفاصلة فيما بينهم لدرء أخطارهم في أوقات السلم والحرب على السواء[24].

ولعل من مشاهير غزاة الترك وقوادهم نذكر: "حوراسق"، و"شبابة"، و"أفرسياب" الذين وصلت إغارتهم حتى العراق[25].

---

18) نفسه، ص. 35.

19) الجاحظ، المصدر السابق، ص. 51.

20) أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، بيروت 1950، ص. 21.

21) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص. 98.

22) انظر: تاريخ العبر، م2، ص. 318-353-355-361.

23) نفس المصدر والصفحة.

24) البلاذري: فتوح البلدان، ص. 317.

25) العبر، م3، ص. 315.

وبالاستناد إلى بعض الدراسات التي اهتمت بشأن الأتراك[26]، فإن أول من أسس حكما مستقلا في تاريخهم هو "أغوزخان"، وهو الذي وضع للترك القوانين ونظمها، وبعد وفاته تعرضت الدولة للتصدع بسبب ما جرى فيما بين بطونها من منافسات ومنازعات حول القيادة؛ غير أن الدولة التي اقترنت باسم "الترك"، هي دولة "كوك-توركلر" التي تأسست على يد "بومين Bu Min"[27]، وذلك على إثر انقراض الهونيين حوالي سنة 525م، وقد امتدت حدودها من بلاد المغول إلى البحر الأسود، واهتم ملوكها بتحسين العلاقات مع الدول المجاورة خصوصا مع الفرس والبيزنطيين، والتي وصلت إلى درجة تبادل السفراء[28].

ويظهر من خلال تلك السياسة السلمية، أن الدولة التركية رغبت في التعاون الاقتصادي مع الأنظمة المجاورة، حيث كانت تستورد بعض المواد الغذائية في مقابل السلع الشرقية كالرقيق، والمسك، والزعفران، والأوبار، والسمور، والسنجاب، والثعالب وغيرها، من السلع التي كان يرغب فيها ملوك العصر آنذاك[29].

والملاحظ أن هذه الدولة تعرضت للانشطار سنة 581م[30]، وخضعت في القرن السابع للميلاد لسلالة "تانغ" الصينية[31]. وعلى الرغم من استقلالها فإن

26) كتابجي، المرجع السابق، ص. 30.
27) المسوعة الإسلامية، ص. 34.
28) كتابجي، مرجع سابق، ص. 41.
29) ياقوت: معجم، ج17، ص. 45 وما بعدها.
30) الموسوعة، ص. 34.
31) نفسه. كتابجي، ص. 41.

النعرات والسخائم القبلية ظلت قائمة[32]، مما حال دون تحقيــق الوحــدة ومواجهة الأخطار.

وحول كيفية ظهور الأتراك في الدولة الإسلامية، فإن المصادر لا تسعف بسبب ما اكتنف الروايات من تضارب واختلاف. وباستقصاء ما ورد في بعضها نلمس ان ظهورهم لم يتم بكيفية فجائية، بل ارتبط بتطور الأحداث والظروف.

ويبدو أن بداية الاحتكاك العربي ـــ التركي حدث بعد البعثة النبوية[33]، بدليل أن الرسول لم يخاطب زعماء الترك بالدعوة إلى الإسلام، مثلما صنع مع ملوك الفرس والروم، وأن ما وصل العرب من معلومات عن الترك جاء ـــ ولا شك ـــ عن طريق الفرس والتجارة، وإن كانت بعض النقوش الحميرية تشير إلى وجود علاقات تجارية بين عرب الجنوب والأتراك منذ زمن بعيد.

غير أن الاتصال المنظم وقع غداة الموجة الأولى للفتح الإسلامي[34]، حيث نشطت الكتائب المسلمة في الجبهات الشرقية طوال أيام الراشدين. ويظهر أن "عمر بن الخطاب" كان حريصا على تنظيم الدولة الإسلامية الناشئة والعمل على سلامتها ومركزيتها[35]، إذ لم يسمح للقادة آنذاك بفتح أو توغل إلا بعد الاستئذان[36]. وكان الفاتحون من جهتهم حريصين على بقاء الاتصال

---

32) الطبري، ج4، ص. 265.

33) ابن هشام: السيرة، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة الباب الحلبي وأولاده، 1965، ج3، ص607.

34) البلاذري: فتوح، دار الكتب العلمية، بيروت 1978، ص. 398 وما بعدها.

35) محمد عمارة: نظرة جديدة إلى التراث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أكتوبر، ص. 1974، ص. 164.

36) الطبري، ج4، ص. 264.

مستمرا ومنتظما بالخلافة لاستشارتها في شأن الفتوحات، وغيرها من المشاكل والأحداث الطارئة والناجمة عن مخلفات الفتح.

لذا، فالراجح أن في عهد "ابن الخطاب" لم تتجاوز حدود "دار السلام" حدود بلاد الترك، وحسبنا في ذلك أنه راسل الأحنف بن قيس[37]، وحذره من عبور النهر خوفا من الفشل، كما كاتب سهيل بن عدي، والحكم بن عمرو الثعلبي يامرهما بعدم تجاوز مكران ومتابعة الأتراك إلى ما ورائها[38].

ومع كل المجهودات التي بذلت من أجل اجتياز الثخوم الإسلامية التركية، فإن التوغل في مجمله كان بطيئا، بسبب انشغال الفاتحين بإعادة ضبط عدد من الأقاليم الشرقية التي انتفضت أيام خلافة عثمان. ولا غرو، فقد ولى الخليفة "عمير بن عثمان بن سعد" على خراسان فأثخن فيها حتى بلغ إلى فرغانة[39]، كما أعاد "ابن عامر" افتتاح فارس التي ثارت على حاكمها عبيد الله بن عمرو وقتلته.[40]

على أن هذا لا يفسر انشغال الجيش بردع العصاة في المناطق الثائرة فحسب، بل استخدم أيضا لمواصلة واستئناف الفتح[41]. ويبدو أن الغزوات الخاطفة لبلاد الترك –وقتئذ– كانت تستهدف في جوهرها الإفادة من الغنائم أكثر من هدف السيطرة المباشرة. فقد ذكر ابن خلدون أن الخليفة عثمان نهى أحد قادة الفتح ويسمى "عبد الرحمان" عن البقاء في بلاد الترك، فلم يرجع حتى

---

37) نفس المصدر والصفحة.

38) ابن خلدون، العبر، ك2، ص. 992.

39) ابن خلدون، مصدر سابق، م2، ص. 1009.

40) نفسه، ص. 1011.

41) نفسه، ص. 1010.

قتل هناك سنة 32 هـ في إحدى غزواته[42]. ولم يكن وضع الخلافة الراشدة يسمح بمواصلة الحملات المنظمة لبلاد الأتراك، بسبب الاضطرابات الداخلية الناجمة عن مسألة الخلافة ذاتها.

وهكذا، ظلت بلاد الترك مستعصية على الفاتحين معظم العصر الراشدي، بفعل ما حل بالدولة الإسلامية -الفتية- من مشاكل وصراع حول قضية الخلافة، وانشغال الفاتحين بالمغانم والمغارم. كما أن طبيعة الفتح وسرعته العابرة لم تفض إلى الاستقرار في البلاد المفتوحة، سيما وأن الكتائب المسلمة كانت تخلف وراءها جيوبا واسعة من الأراضي دون تنظيم محكم يؤمن لهم الاستقرار.

وعلى النهج نفسه كانت سياسة الأمويين ــ الإقطاعية ــ تحتفظ بطابعها العربي الأرستقراطي، وتلتئم في وحدات عصبية في المناطق المفتوحة، التي تكاد تكون مطابقة مع مواطن نشأتهم في شمال بلاد العرب وجنوبها. لذلك اتسمت سياسة معظم الخلفاء الأمويين بالجشع، وتسخير القوى العسكرية لتحقيق الأغراض والمنافع الخاصة.

وفي هذا الصدد، كان الولاة حريصين على جمع الأموال والغنائم وإرسالها إلى دمشق[43]، وهذا ما يفسر عدم استقرار الأوضاع في تلك الجبهات. فقد ذكر البلاذري[44] أن الأتراك المتواجدين في "طبرستان" أفنوا جيش الخلافة عن آخره أيام "معاوية بن أبي سفيان"، وكان آنذاك تحت امرة "مصقلة بن هبيرة بن شبل" فضرب الناس به المثل، فقالوا حتى يرجع مصقلة من طبرستان[45]، كما أوقعوا بجيش محمد بن الأشعث بن قيس الكندي وقتلوا ابنه

[42]) نفسه، ص. 1024.
[43]) ياقوت، معجم، ج3، ص. 356.
[44]) انظر، فتوح، ص. 330.
[45]) نفسه.

أبا بكر وفضحوه[46]، لدرجة أن الفاتحين آنئذ لم يقووا على التوغل في أرض الأتراك بسبب اشتداد المقاومة.

ففي خبر للطبري حول أحداث سنة 105هـ، أن مسلم بن سعيد غزا الترك، فلم يفتح شيئا فقفل راجعا، ثم غزا مدينة من مدائن السغد في تلك السنة فصالح ملكها وأهلها[47]؛ وأضاف البلاذري[48] أن المسلمين كانوا يغزون ذلك الثغر وهم حذرون من التوغل في أرض العدو.

ويبدو، أن الغزو المنظم لما وراء النهر، جرى خلال استقرار أوضاع الدولة الأموية ـ خصوصا أيام الوليد بن عبد الملك ـ حيث يلاحظ أنهم حاولوا مد حدود دار الإسلام إلى أقصى ما يمكن، بهدف السيطرة على طرق التجارة العالمية، وسد طريق الهجرة على الأتراك في اتجاه الغرب، وضمان الإفادة من الجبايات والسلب والنهب والابتزاز، سيما وأن أوضاع الدولة الإسلامية -وقتئذ- شهدت نمو فئة ماركانتيلية ملتصقة بالبلاط، وسعت إلى جلب السلع الكمالية والمواد الخام التي تدخل في خدمة لوازم المؤسسة العسكرية وقصور الارستقراطية[49]، وقد ساعدت الفوضى الاجتماعية والتفكك السياسي فيما بين الأتراك آنذاك على تنفيذ مشروع سياسة التوسع الأموي.

فمن خراسان كانت تنطلق الجيوش إلى آسيا الوسطى، وكان الخلفاء يوكلون أمر تلك الولاية الاستراتيجية لأبرز القادة المحنكين؛ من ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي حينما أصبح واليا على العراق، عين "قتيبة بن مسلم

---

[46]) نفسه، ص. 331.

[47]) انظر، تاريخ، ج8، ص. 178.

[48]) انظر، فتوح، ص. 331.

[49]) حول تفاصيل هذا الموضوع، انظر، محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ج1، ص. 66 وما بعدها.

الباهلي" واليا على خراسان[50]، وكلفه بتأمين الجبهة الشرقية، وإعادة فتح بلاد الترك فأثخن "قتيبة" في بلاد التركستان لمدة عشر سنوات 86-96هـ، تمكن خلالها من إسقاط عدد من المدن، والسيطرة على خطوط التجارة العالمية، إذ فتح "خوارزم"، و"بخارى"، و"السغد"، و"الطالقان"، و"سمرقند"، و"الشاش"، و"فرغانة"، و"كاشغر"، حتى وصل إلى الصين.[51]

وهذا الغزو الخاطف لم يكن كافيا لتأمين البلاد المفتوحة وضمان ولائهما، بل استهدف - كما عرفته باقي الفتوحات؛ الحصول على الجزية والخراج والمغارم. مصداق ذلك ان "قتيبة" صالح أهل سمرقند، "على ألف ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه ثلاثين ألف شاب، ويكون له بيوت النيران وحلية الأصنام"[52]. كما أن "يزيد بن المهلب" صالح أحد أمراء "جرجان" مقابل إقطاع كبير[53]، وصالح "المرزبان" على "سبعمائة ألف درهم، وأربعمائة وقر زعفرانا"[54]، و"صالح الأصبهد على أربعة آلاف درهم، وسبعمائة ألف درهم مثاقيل في كل سنة، ووفر أربعمائة جماز زعفرانا، وأن يخرجوا أربعمائة رجل على رأس كل رجل منهم ترس، وطيلسان، وخاتم فضة، ونمرقة حرير.. وبرنس"[55].

ومع ذلك لم تستكن تلك الأصقاع، بسبب تعنت الولاة واستبدادهم إزاء الأهالي. وحسبنا أن قتيبة أوصى نائبه -عبد الله بن مسلم- على سمرقند بأن

---

50) المصدر السابق، ج8، ص. 59.

51) نفسه.

52) نفسه، ص. 86-87.

53) نفسه، ص. 332.

54) نفسه.

55) نفسه، ص. 333.

يتشدد في سياسة الأتراك، لدرجة أنه أمر بقتل من وجده منهم بالمدينة ليلا[56]، كما أن عبد الملك بن مروان عزل واليه "أمية عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص" على خراسان لكونه صالح المالك التركي "رتبيل" على قدر من المال لم يقنع الخليفة، وهو ثلاثمائة ألف درهم[57]، وقد انتحر محمد بن الأشعث خوفا من "الحجاج بن يوسف" حينما هادن "رتبيل"[58] خصوصا وان الخزانة الاموية أصابتها أزمة خطيرة بسبب تناقص ضريبة الجزية بالتدريج.

لذا فمن الطبيعي أن تتفاقم ثورات الترك على الحاميات الإسلامية بالمدن المفتوحة، الأمر الذي حدا بالأمويين إلى انتداب قادة آخرين لإعادة فتحها من جديد. ومارس القادة أسلوبا وحشيا في هذا السبيل. ففي خبر للطبري[59]، أن يزيد بن المهلب تحرك في اتجاه جرجان سنة 98 هـ لتأذيب الأتراك الثائرين بها "وأعطى الله عهدا لئن ظفر بهم أن لا يقلع عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين، ويأكل منه"، وأضاف أنه بر بوعده "فسبى ذراريهم وقتل مقاتلهم وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وقاد منهم اثني عشر ألفا... فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة والخمسة في

---

56) وفي هذا الصدد قال ابن كثير على لسان قتيبة:

"لا تدع مشركا (أو الترك) يدخل بابا من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله، وإن وجدت معه حديدة أو سكينا فما سواه فاقتله، وإن غلقت الباب ليلا فوجدت فيها أحدا فاقتله".

انظر: البداية والنهاية، ج9، ص. 86، مطبعة السعادة بمصر 1932.

57) المصدر السابق، ص. 390.

58) البلاذري: فتوح، ص. 391. المسعودي، التنبيه، ص. 289.

59) انظر: تاريخ، ج8، ص. 124.

الوادي، وأجرى الماء في الوادي على الدم وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ولتبر يمينه، "فطحن واختبز وأكل"[60].

ومهما انطوت عليه هذه الرواية من مبالغات فإنها تكشف ـــ على الأقل ـــ مدى سوء معاملة الفاتحين للأهالي، مما جعل تلك المناطق منبعا للمشاكل والفوضى التي طبعت معظم تاريخ العهد الأموي برمته.[61]

وحسبنا في ذلك دليلا أنهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم، ولا يتوانون عن إرسال الحملات التأديبية لمعاقبة الممتنعين عن الأداء. ومن الطبيعي في تلك الأجواء أن يختل الأمن في مدن تركستان، خصوصا سكان بلاد السغد، وبخارى، وفرغانة، الذي ارتدوا مرات عديدة عن الإسلام، وناصبوا حكام الولايات العداء.

والحصيلة أن معظم بلاد الترك، ظلت في عهد الأمويين يسودها الاضطراب؛ إذ لم تعد حركة الفتوحات سهلة وسريعة، كما لم يعد عنصر المفاجأة أسلوبا حاسما في تطويع البلاد وتهدئتها. ولعل ما زاد من تفاقمها، تعكر الجو السياسي في حاضرة الخلافة الأموية نفسها، بسبب ازدياد نشاط الدعوة العباسية التي استفادت من سخط الأهالي، وانتقال العدوى إلى الديار التركية التي استغلت مشاكل الخلافة الأموية وتقاعسها عن توفير الأمن والرخاء للسكان.

ويبدو أن قادة الفتح كانوا على دراية وتجربة بقوة الأتراك، وبسالتهم في الحروب وقدرتهم على المواجهة وتحمل الصبر، فعملوا تحت إذن الخلافة على

---

60) نفسه، ص. 125.

61) نفسه، ص. 168-169-174-178-184-206-289.

تجييش عدد منهم لقمع المناهضين لسياسة الدولة، فضلا عن استخدامهم في الحرس الخلافي الخاص.

ونقف عند كلمة "البخارية" في معجم ياقوت الحموي الذي يقول: "بأنها سكة بالبصرة أسكنها "عبيد الله بن زياد" أهل بخارى الذي نقلهم منها إلى البصرة، وبنى لهم هذه السكة فعرفت بهم ولم تعرف به"[(62)]. وقد بين الطبري عددهم بقوله: "إنهم كانوا ألفين كلهم جيد الرمي بالنشاب، حيث أسكنهم السكة وفرض لهم العطاء".[(63)]

ومع كل ذلك يبقى من المؤكد أن العباسيين هم الذين استخدموا الترك على نطاق واسع، بسبب نهجهم سياسة مرنة في الفتح، وحسن معاملة الأهالي من جهة والقسوة عليهم من جهة أخرى.

وكانت أولى الحملات، بقيادة أبي داود خالد بن إبراهيم الذي غزا بلاد الترك سنة 134هـ، فأثخن في أهل الصغد، وأهل بخارى، وأمر ببناء حائط سمرقند، واستخلف زيدان بن صالح على الصغد وبخارى، ثم رجع إلى بلخ.[(64)]

ويتضح أن العباسيين بدأوا يركزون على المواطن الاستراتيجية لتأمين التخوم، كالحماية الثغرية بواسطة الرباطات وإشراك العناصر المحلية في الدفاع والعطاء. ولا شك أن هذه السياسة أفادت الخلافة إلى حد كبير، لدرجة حملت أحد الباحثين[(65)] إلى الاعتقا: بأن بعض العناصر التركية كانت قد ساهمت في نجاح الانقلاب العباسي الذي أنهى الأمويين.

---

[62]) انظر: معجم البلدان، ج3، ص. 356.

[63]) انظر: المصدر السابق، ج6، ص. 167.

[64]) المصدر نفسه، ج9، ص. 150.

[65]) فاروق عمر، طبيعة الدولة العباسية، بيروت 1970، ص. 89.

والواقع أن تجييش الترك في الخلافة العباسية، حصل بجلاء في دولة أبي جعفر المنصور (136 - 158هـ)؛ يقول السيوطي: "إنه -أي المنصور- أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب، وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها"[66].

وإذا كانت الرواية لا تكشف بالتدقيق عن قومية هؤلاء الموالي والغلمان، فإن رواية "الثعالبي" صريحة في هذا المعنى، فقد ذكر "أن أول من اتخذ الأتراك من الخلفاء المنصور، اتخذ حمادا، ثم اتخذ المهدي مباركا، ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر الناس"[67].

كما اورد البلاذري[68] في هذا الصدد أن "معن بن زائدة الشيباني لما استخلفه المنصور على سجستان سبى وأسر زهاء ثلاثين ألفا من الأتراك، وفيهم "ماوند" خليفة "رتبيل" التركي، فحمله إلى أمير المؤمنين فأمنه وبعث به إلى بلاد بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلهم، فأكرمه المنصور، وفرض له وقوده. كما نقرأ عند اليعقوبي[69] أن بغداد وجدت بها مساكن خاصة لفرق عسكرية من بلخ، وخطل، واسفيجاب، واستبخان، وبخارى، وفرغانة، وخوارزم، وجرجان، وبادغيش.

ويظهر أن الأتراك شكلوا قوة لا بأس بها ضمن هذه الفرق، خصوصا وأن المنصور لم يكن مطمئنا للعسكرية العربية والفارسية التي أنهكتها الخصومات، وفشلت في ردع الحركات المناوئة للخلافة.

---

66) انظر: تاريخ الخلفاء، ص. 269-270.

67) انظر: لطائف المعارف، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960، ص. 20.

68) انظر: فتوح، ص. 393.

69) انظر: البلدان، تحقيق ذي غويه، ليدن 1892، ص. 248-249.

وكانت تلك الظروف الصعبة، كافية لاضطرار المنصور إلى الاعتماد على الأتراك. وليس أدل على ذلك أنه "أوكل إلى حماد التركي أمرة أسرار دولته وعلم آبائه"[70]. ولم ينس في وصاياه للمهدي أن ينصحه بالاهتمام بالأتراك والإحسان إليهم والاستكثار منهم والاعتماد عليهم في مواجهة الشدائد والمحن.

ولما تولى المهدي سار على نهج سلفه في استخدام الأتراك، خصوصا بعدما تعاظم أمر المقنع الخراساني، وأمير بخارى، وخاقان الترك، الذين تحالفوا فيما بينهم وناصبوا الخلافة العداء[71]، كما تمرد أهل خراسان على عامل الخليفة وطردوه، وامتنعوا عن أداء الخراج[72].

وعلى الرغم من اتباع "المهدي" سياسة اللين لردع بعض الحركات المناوءة، فإن أحداث الفتنة والتمرد الذي شهدها عهده، كشف له عن أهمية تجييش الأتراك، إذ لا نستبعد أن يكون من بين حرسه الخاص المكون من خمسمائة رجل[73]، عناصر تركية[74].

وبالرغم من قصر عهد الهادي (169-170هـ)، فإن الأتراك ظلوا يشكلون النخبة من بين قواده، ولم يتوانوا عن التنكيل بالشيعة الذين ثاروا في بغداد سنة 169هـ.[75]

---

[70] الطبري، مصدر سابق، ض. ج9، ص. 319.

[71] فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي، ص. 23.

[72] زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1972/1، ص. 219.

[73] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، القاهرة 1347هـ/1348هـ، ص. 57.

[74] الجهشياري: الكتاب والوزراء، ص. 101.

[75] الطبري، المصدر السابق، ج10، ص. 34 وما بعدها.

وفي زمن الرشيد أمكن لكثير من الأتراك أن يخدموا دولته؛ وقد اشتهر ولوعه بالجواري والحظايا الذي وصل عددهن إلى أربعة آلاف جارية[76] معظمهن من التركـــيات، ومن بينهن، "مراجـــل"[77]، و"ماردة"[78] اللتان أنجبتا له "المامون" و"المعتصم". ولا شك أن الحرس التركي في عهده قد حظي بامتيازات خاصة، إذ كان ينيطهم امر استقبال الوفود، ويوكل إليهم تعمير الثغور وحمايتها.[79]

وخلال الفتنة التي حصلت من جراء الصراع بين الأمين وبين المأمون، أسفرت ضمن ما أسفرت عنه، خطورة الاعتماد على العنصرين العربي والفارسي في الجيش بسبب انعماسهما في السياسة وحبك الانقلابات، فأصبح الوضع الجديد يقتضي استبدالهم استبداليا كليا بالأتراك.

وبمجرد وصول المعتصم إلى الحكم (218 ـ 227هـــ) فسح المجال للأتراك على نطاق واسع، فألحقهم بديوان الجيش وأناطهم بالحراسة، وردع العصاة، ومنذ بداية التاريخ أصبح مرجع القوة في كل شيء إلى الجند التركي الذي أثبتت الأحداث —وقتئذ- إخلاصه وتفانيه في خدمة الخلافة.

والواقع أن هذا التحويل ليس ناجما عن طبع المعتصم كما اعتقد عدد من الدارسين[80]، بل ناجما عن الظروف الصعبة التي كانت تجتازها الخلافة، حيث

---

76) ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص. 220.

77) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص. 318.

78) الطبري، المصدر السابق، ج11، ص. 9.

79) البلاذري: فتوح البلدان، ص. 307.

80) – فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص. 255.

-زيدان: التمدن، ج2، ص. 105.

- كتابجـــي، ص. 126.

أبانت التجارب السابقة عن عقم العسكرية العربية والفارسية المتنابذة، وعجزها عن حماية السلطة المركزية وتعزيز هيمنتها وهيبتها.

والثابت أن المعتصم، كان قد عايش مشاكل الدولة حينما كان مسؤولا من قبل أخيه على شؤون مصر وسوريا[81]، وكان وقتها من المتحمسين لتجنيد الأتراك[82]، كما أن اتساع الامبراطورية وظهور مشاكل خطيرة في الداخل وعلى الثخوم، والتي تمثلت في الخطر البابكي والبيزنطي، كانت كلها دوافع أساسية دفعته إلى المزيد من الاستعانة بالعناصر التركية. إذ يستفاد من أخبار ابن حوقل[83] "أن المعتصم أمر قائده "عبد الله بن طاهر" بالعمل على حشد أتراك ما وراء النهر، وتجييشهم في دولة الخلافة، وفضلا عن الشراء، عمل الخليفة على ترغيب أمراء الترك في التقدم عليه وتشجيعهم بالامتيازات في حاضرة الخلافة. ومن الأمراء الذين تقاطروا عليه نذكر :"كيدرة" و"ديفاد"، و"بخارى خدا"، و"بوزبارة"، و"سولتيجين" و"مرزبان بن ترقش"، وحاشية من الأمراء".

وأرفق العتصم إنشاء هذا الجيش بمبادرة أخرى على جانب من الأهمية، وهي إقدامه على استحداث سامراء كمدينة عسكرية متميزة[84]، ولعل هذا الإجراء يرجع بالأساس إلى تعاظم وجود الترك في بغداد.

والظاهر أن المكان المختار كان مقصودا لاستراتيجيته، حيث يسهل الوصول منه إلى بغداد برا وبحرا إذا خرج أهلها عن الطاعة[85]، ولاحظ أحد

---

81) الطبري، ج10، ص. 179.

82) ابن طيغور، بغداد، ص. 78.

83) راجع: صورة الأرض، ص. 387.

84) الحنبلي: شذرات، ج2، ص. 128.

85) الطبري، ج10، ص. 311.

الدارسين[86] أن المعتصم لم يهتد إلى ذلك المكان بمحض الصدفة، فالسفاح كان قد شرع في بناء مدينة تقع في نفس الموضع، وأراد المنصور أن يستمر فيها على إثر انتهائه من تأسيس بغداد، وجاء الرشيد وبنى هناك قصرا للنـــزهة، وحفر عنده نهر القاطول. ثم بني المعتصم في ذلك المكان قصرا وهبه لاشناس، قبل أن يستحدث المدينة الجديدة.

شرع المعتصم في تشييد سامراء سنة 221هـــ، فأحضر الفعلة والصناع المهرة، وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية، واختط بها أقساما مستقلة لكل فرقة حسب قبائلها نسبت في أغلبها للمواطن التي وفدت منها[87]، وأقام في طرفها مسجدا وأمر بإنشاء أربعة قصور حول قصره وهبها لاشناس، وإيتاخ، وبغا، ووصيف من قادة الترك، كما أفرد للتجار، وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة ونقل إلى المدينة أنواع الغروس والأشجار[88].

ومن ثم أصبح هذا المعسكر موئلا لاستقبال الأتراك الجدد الوافدين من الشرق[89]، ويبدو أن العدد تكاثر من جراء الهجرة والتوالد الذي يعتقد أنه كان برغبة الخلافة وتشجيعها، حتى أن الخليفة لم يكن يسمح لأحد بأن يطلق زوجته، أو يفارقها، بل كان المعتصم نفسه يتولى زواج بعضهم بالبعض.

وعلى كل، ازدادت أعداد الترك حتى وصل حسب بعض المصادر إلى سبعين ألفا[90] أو ثمانين ألفا[91] حسب البعض الآخر، يوضحها أن بعض شوارع سامراء أصبحت تحمل أسماء تركية[92].

---

86) انظر: كتابجـــي، ص. 139-140.
87) اليعقوبي: تاريخ، ج3، ص. 170.
88) كتابجي، مرجع سابق، ص. 140.
89) البلاذري، ص. 420.
90) يافوت، ج10، ص. 174.

وكان من الطبيعي أن يعمد المعتصم إلى تسريح العناصر السابقة، ويرسم الأتراك في ديوان العطاء[93]. وهذه السياسة تسببت في اندلاع حركات عربية وفارسية مناهضة، كلفت الخلافة كثيرا من أجل القضاء عليها؛ فقد ثارت قبائل لخم وجذام في مصر بقيادة "يحيى بن الوزير الجروي" احتجاجا على إسقاط أعطيات العرب[94]، وعبرت حركة المبرقع اليماني على تذمر أهل الشام لنفس السبب[95]، كما لقيت سياسة المعتصم، معارضة من طرف بعض أفراد البيت العباسـي، حيث دبر القائد العربي "عجيـف بن عنبسـة" بالاتفاق مع العبـاس بن المامون مؤامرة لاغتيالـه[96].

ومن جهة أخرى، لا نستبعد الأثر الفارسي في استفحال الانتفاضة البابكية في ذلك الوقت، فهذه الحركة استمرت نيفا وعشرين سنة، مات المامون وهو يشكو من خطورتها. ولما جاء المعتصم أوكل أمرها للأتراك، وأنفق لردعها أموالا طائلة وبعد سلسلة من الحروب الطويلة، تمكن الجيش التركي بقيادة الأفشين من القضاء عليها.

عندئذ تعززت مكانة الترك، فاكتسبوا ثقة الخلفاء ونجحت تجربة الخلافة في الاعتماد على هذه العناصر لمواصلة أخماد الفتن والقلاقل، كما أبانت حوادث عمورية ما توافر للجيش الجديد من مقدرة وكفاءة حربية عالية، يؤكد ذلك أن المعتصم أشاد ببلائهم وخبرتهم، ولم يتردد في تشريف قائدهم أشناش

---

[91] ابن تغرى: النجوم الزاهرة، دار الكتب القاهرة، 1930، ج2، ص. 233.

[92] الموسوعة الإسلامية، ج11، ص. 83.

[93] السيوطي، ص. 335.

[94] فاروق عمر: الخلافة العباسية، ص. 62 نقلا عن كتاب الولاة والقضاة، ص. 194.

[95] الطبري، ج11، ص. 5 وما بعدها.

[96] نفسه، ج10، ص. 343-348.

وتتويجه وتوشيحه واستخلافه حين هم بالخروج إلى مدينة "السن" سنة 225هـ.[97]

ولم تزل مكانة التراك عالية طوال خلافة المعتصم، وإثر تولية الواثق الخلافة (227- 232هـ) سلك نهج أخيه في الاعتماد على الترك فاستخدمهم لإخماد الفتن التي ظهرت إبان حكمه.

ولا غرو، فقد شهد عهده بعض الانتفاضات العربية، ففي سنة 230هـ ثار بنوسليم في بلاد الحجاز و نصبوا عليهم رجلا منهم، هو عزيز الخفافي الذي بايعوه بالخلافة[98]، **كما** ثار بنو مرة، وبنو نمير، وخلعوا طاعة السلطان[99]، **وهذه الفتن كانت احتجاجا على** سياسة تقريب الأتراك من دون العرب كما لاحظ **ذلك المؤرخ الطبري.**[100]

ولم يتوان **الواثق في** إيفاذ الأتراك بقيادة "بغا الكبير" لوضع حد لتلك الفتن؛ وعندئذ أصبحت العصبية التركية ذات مكانة بارزة في الدولة، وأحرزت قيادتها مناصب هامة؛ مثال ذلك أن "اشناس" التركي، استخلفه السلطان على أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب[101]، كما ولى إيتاخ على إدارة خراسان والسند وكورد جلة[102].

---

97) الطبري، المرجع السابق، ج10، ص. 363.

98) اليعقوبي، ج2، ص. 480.

99) المصدر السابق، ج.11، ص. 21.

100) انظر، ج11، ص. 22.

101) المصدر نفسه، ج10، ص. 363.

102) اليعقوبي، ج3، ص. 204-205.

والملاحظ أنهما لم يبرحا سامراء للالتحاق بأعمالها، بل أنابا عنهما من يقوم بذلك[103]. وهذه الظاهرة ستترتب عنها نتائج وخيمة على الصعيد السياسي والاقتصادي؛ من ذلك أن كثيرا من الوكلاء استقلوا بالولايات الموكولة لهم منتهزين ضعف السلطة المركزية من جهة، وانشغال قادة العسكر بمشاكل الخلافة من جهة أخرى، وبموت الخليفة الواثق، افتتح دور جديد في تاريخ الدولة العباسية هو دور تسلط الأتراك على الخلافة والدولة والتحكم في كل أجهزتها.

والمعتقد أن العناصر التركية لم تكن -في حقيقة الأمر- وفية للنظام كما تصور الجاحظ[104]، وإنما كانوا خداما لخزائنه وامتيازاته. ويبدو أن طموح هؤلاء حصل غداة اصطناعهم من طرف المعتصم كما أسلفنا، وظهر ذلك جليا في حركة "الافشين" الذي يرجح أنه كان على اتصال وثيق ببعض الحركات الانفصالية، وعلى رأسها "المازيار بن قارن"؛ غير أن الظروف —وقتها- لم تكن ناضجة لتحقيق أهدافه، حيث أدين بالتواطؤ على الدولة فنفذ فيه الإعدام.[105]

ويلاحظ ان هذا الحادث خلف خيبة أمل في نفسية المعتصم، وهو ما كشفت عنه تلك المحاورة التي أجراها الخليفة مع أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم في هذا الشأن.[106]

---

103) حسين محمود، العالم الإسلامي، ص. 327.

104) راجع: رسائل، ص. 49.

105) الطبري، ج10، ص. 333.

106) "وذكر محمد بن راشد قال قال لي أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم دعاني امير المؤمنين المعتصم يوما فدخلت عليه... ثم قال يا إسحاق في قلبي أمرانا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك، فقلت قل يا سيدي أمير المؤمنين، فإنما أنا عبدك وابن عبدك قال نضرت إلى أخي المامون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم قلت وما الذين اصطنعهم أخوك قال طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله وأنت فانت والله الذي

وإذا كانت الخلافة في ذلك الوقت ما زالت قادرة على كبح جماح الترك، فإنه ابتداء من خلافة المتوكل، أصبح الخلفاء عاجزين تماما عن مواجهة تطاول الأتراك، وهذا التطاول انعكس على أحوال الخلافة في العصر العباسي الثاني اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا.

خلاصة القـــول، إن العناصر التركية التي كانت سيفا في يد الخلافة توجهه للقضاء على خصومـــها، تحول للنيل من مكانتها في العصر العباسي الثاني لأسباب كثيرة وهذا ما عالجناه في دراسة مستقلة ومستفيضة.

لا يعتاض السلطان منك أبدا وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد وأنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره واشناس ففشل أيه وايتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغني فيه.......".

انظر المصدر نفسه، ج11، ص. 8.

محور قضايا تاريخية من الحقبة القديمة حتى الفترة الحديثة

النقائش اللاتينية بموريطانيا الطنجية

ذ. مصطفى الغيثي
كلية الاداب - مكناس

أسفرت الأبحاث الأركيولوجية منذ سنة 1916 إلى الآن على إعطاء فكرة عامة عن تاريخ المغرب القديم الذي كان مجهولا إلى حد كبير. كما تمت إضافة مصادر جديدة تدخل ضمن الأبحاث الأثرية في تاريخ المغرب الذي كان مقيدا بالمصادر المكتوبة أو ما يصطلح عليها عامة بالمصادر الكلاسيكية (لاتينية- إغريقية، ولاحقا المصادر العربية). مما أعطى للباحثين توجهات علمية مختلفة تصب في البحث عن تاريخ المغرب ومراجعة بعض الإشكاليات العالقة بالتاريخ القديم.

سنتناول جانبا من هذه المصادر المكتوبة والمتفرعة عن البحث الأثري، ألا وهي النقائش اللاتينية لإبراز أهميتها وقدرتها على تناول حقبة زمنية معينة من مختلف الجوانب، سواء كانت سياسية، إدارية، اجتماعية، دينية، أو اقتصادية.

إن المغرب أو ما يعرف قديما بموريطانيا الطنجية، وكباقي الأقاليم الأخرى التي كانت خاضعة للسيطرة الرومانية، اكتشف به لحد الآن على ما يقرب من ألف نقيشة لاتينية موزعة على أكبر المدن الأثرية: بناصا، طنجة، سلا، تموسيدا، ثم وليلي التي تملك لوحدها على ما يقرب من 70 بالمائة من

النقائش اللاتينية المكتشفة بالمغرب[1]. إن المواضيع التي تتناولها هذه النقائش عديدة ومتنوعة وفي غاية الأهمية، حتى وإن كانت النقيشة صغيرة الحجم ولا تتعدى بضع سطور.

نقتصر في هذا الجانب بالتركيز على ثلاثة نقائش أفادت التاريخ المغربي بصفة خاصة والتاريخ الروماني بصفة عامة وأصبحت مراجع يحال عليها عند الضرورة.

1- نقيشة سلا: أو ما تعرف بقاعدة تمثال M.Sulpicius Felix [2] وتضم ثلاثة واجهات كتابية: الأولى مهداة إلى هذا القائد الروماني وموقعة من قبل المجلس البلدي بسلا سنة 144م. النقيشة الثانية مهداة مرة أخرى إلى هذا القائد الروماني الذي تم نعته ب Liberator وفيها تفصيل عما قام به من أعمال خالدة، أهمها توفير الحماية والأمن لسكان مدينة سلا من غزو القبائل المجاورة، كما يطالب فيها أعيان المدينة الحاكم بموريطانيا الطنجية Uttedius Honoratus أن يرخص لهم مرة أخرى إهداء قاعدة تمثال لهذا القائد العسكري و إرسال بعثة محلية إلى الإمبراطور Antonius Pius لمدح هذا القائد و إظهار قدراته العسكرية و المدنية.

وإن كان الجانب الخفي من هذه البعثة، هو التماس الإمبراطور لتجديد عقدة ثانية مع M.Sulpicius Felix ، قائد الحامية السورية الثانية وبقاءه بمدينة سلا. إلا أن الطلب تم رفضه من قبل الحاكم بموريطانيا الطنجية قبل أن تتوجه البعثة إلى روما وكأنه بذلك يريد تقويض شعبية هذا القائد وهو على وشك الرحيل مع

[1] –Inscriptions Antiques du Maroc-2- Inscriptions Latines, recueillies et préparées par Maurice EUZENNAT et Jean MARION, publiées par Jacques GASCOU avec le concours de Y.DE KISCH , éd. C.N.R.S , Paris, 1982. =IAM2

[2] - IAM2 307

انتهاء مدة صلاحيته بالمغرب. وهذا ما نلمسه من النقيشة الثالثة التي تضم ثمانية و ثلاثون اسما لكبار وجهاء المدينة لقبوا أنفسهم بأصدقاءamici القائد.

2- نقيشة بناصا : يجمع الباحثون على أن هذه النقيشة ثمينة وقيمتها المصدرية تجاوزت المغرب لتصبح مصدرا دوليا حيث ترجمت إلى عدة لغات. كما أنها ساهمت في فهم العلاقة بين روما والقبائل المحلية التي لم يحصل رؤساءها بعد على المواطنة الرومانية. النقيشة مكتوبة على البرونز وتتضمن ثلاثة نصوص[3]:

أ- رسالة جوابية من الإمبراطور" ماركوس أورليوس"Marcus Aurelius و"لكيوس وروس"Lucius Verus مؤرخة بين سنة 161-169م إلى الحاكم Coiedius Maximus حاكم موريطانيا الطنجية في هذه الفترة الذي كان قد بلغ الإمبراطور برسالة من"يوليانوس" قائد قبيلة "زكرنسس" يطلب فيها المواطنة الرومانية ولزوجته " زدنا" Ziddina " ولأولاده الأربعة.

ب- رسالة جوابية من الإمبراطور" ماركوس أورليوس" و"كومودوس" سنة 177م موجهة إلى الحاكم Vallius Maximianus لمنح المواطنة الرومانية لأمير قبيلة زكرنسس" Zegrenses " أورليوس يوليانوس" Aurelius Iulianus وزوجته وأبنائه بعد أن تقدم بطلب في هذا الصدد مع الحاكم السابق Epidius Quadratus.

ج- نسخة من السجل الإمبراطوري تتضمن أسماء أفراد القبيلة الذين حصلوا على المواطنة الرومانية وهم زوجة أمير القبيلة وأبنائه الأربعة. هذا السجل مصحوب بقرار مؤرخ بـ6 يوليوز 177م.

أثارت هذه النقيشة جدلا كبيرا بين الباحثين والمختصين في القانون الروماني، كما أنها كشفت عن جوانب مهمة من تاريخ ساكنة المغرب في

---

3 - IAM2 94

علاقتها مع روما وبالمقارنة كذلك مع نقائش وليلي المعروفة ب"معاهدات سلم"بين روما وقبيلة " البكوات ".

3- قاعدة تمثال M.Valerius Bostaris f Severus: إن هذه النقيشة المؤرخة بعد سنة 13 أكتوبر 54م من بين أهم النقائش التي تؤرخ لوليلي في بداية دخولها تحت الحكم الروماني، وما تحمله من مستجدات تاريخية تتحدث عن كيفية إعطاء مدينة وليلي مرتبة قانونية "بلدية رومانية"وليست لاتينية. كما تكمن أهمية هذه النقيشة في إشارتها إلى ثورة " أيدمون" ضد روما ومدى مساهمة السكان الوليليين في إخمادها والقضاء عليها. هذه النقيشة[4] تعتبر بحق سجلا لتاريخ وليلي والمعلومات الواردة فيها لا نجدها في النصوص القديمة وما زالت تحتمل قراءات متعددة، خاصة مرحلة ما قبل دخول روما إلى وليلي.

إن التركيز على بعض من هذه النقائش هو فقط التأكيد على أهمية هذا الجانب الذي يدخل ضمن المصادر الإبيغرافية التي أصبحت ملازمة للدراسات التاريخية عموما، سواء كانت تتعلق بالتاريخ القديم أو التاريخ الإسلامي.

أخيرا نستسمح القارئ على هذا التلخيص للمقال و سننكب على دراسة هذه النقائش بتفصيل و بالاعتماد على معطيات جديدة .

[4] - IAM2 448

عروبة القدس منذ فجر التاريخ

ذ. السعيد لمليح

كلية الآداب مكناس

سيتطرق هذا العرض لموقع القدس ولأسمائها ولعروبتها منذ فجر التاريخ فضلا عن قدسيتها في الأديان السماوية الثلاث وعلى الخصوص عند المسلمين.

تقع القدس على خط الطول 35 درجة شرقـــا وعلى خط العرض 34 درجة شمالا، وتبعد عن نهر الأردن مسافة 40 كلم إلى الغرب وعن ساحل البحر الميت 65 كلم وتقوم المدينة على سلسلة جبال القدس ضمن هضبات ذات مرتفعات تعلو أكثر من 800 متر عن سطح البحر، وجوها معتدل الرطوبة، وهو أقرب إلى الجفاف.[1]

ويحيط بالمدينة سور عظيم لايـــزال قائما إلى اليوم. وكان أول من بناه السلطان سليمان القانوني العثماني منذ سنة 1536م ودام بناؤه خمس سنوات، وللسور 24 برجا وسبعة أبواب، ومن أبوابها باب المغاربة من الجنوب. [2]

1- أسماء القدس.

لهذه المدينة المقدسة أسماء كثيرة وردت في كتب المؤرخين والجغرافيين والكتب المقدسة منها: يروساليم، ويوروشاليم، وشلم، وشلمٌ، وشلم، وسلم ويبوس، وموريا، وإيلياء، وبيت المقدس، والقدس وغيرها.[3]

غير أن أقدم اسم للمدينة ورد في نصوص "الطهارة المصرية" في القرن 19 ق.م بصورة يوروشاليم. وكانت يوم ذاك مركزا لعبادة الكنعانيين الذين سكنوا

---

1 رفيق النتشة ، القدس عربية، دعوة الحق ع5، س22، شوال 1041، غشت 1981 ص 169.

2 م.ن.ن.ص.

3 د. حسن ظاظا، القدس مدينة الله، دار القلم، دمشق. ط1. 1418-1998، ص42-43

البلاد قبل بني إسرائيل. والراجح أن الإسم مركب من كلمتين: يورو- شاليم، ويورو معناها تأسيس أو مدينة، وشاليم إسم إله كان الكنعانيون يعبدونـــه.[4]

وورد ذكرها في "رسائل تل العمارة" في القرن الرابع عشر ق.م بإسم يوروساليم -urusalim- ثم بعـــد ذلك في النقـــوش الآشـــورية أوروساليـــم -urusalimus- ووردوها بالشين حينا وبالسين حينا آخر مألوف في اللغات السامية، فهذان الصوتان متداولان ولهما أمثلة كثيرة أقربها شلوم وسلام[5]

وإذا كانت بعض هذه التسميات قد وردت في الكتابات العربية وما دونه أصحاب الجغرافيا والرحلات وعلماء التاريخ فإن ما عرفت به المدينة في العهد الإسلامي يكاد أن ينحصر في إصطلاحات تفيد التشريف والتقديس وهي القدس الشريف المدينة المقدسة، إضافة إلى "إليـــا" التي يلاحظ ورودها في الوثيقة العمرية التي سيساق ذكرها بعد.[6]

وجاء في كتب التفسير مثل الطبري والقرطبي أن من أسماء هذه المدينة "المسجد الأقصى" الوارد في أول سورة الإسراء "المسجد الأقصى"، «سبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»[7] ويعني بيت المقدس باتفاق على تعريف الموقع كله بالمعلمة التي فيه. وجاء في نفس الكتب كذلك عن قتادة وابن عباس وابن زيد أن من أسمائها: "الزيتون" الوارد في أول سورة التين،«والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين»[8] باعتبار أن المكان مشتهر بإنبات الزيتون، مع التنبيه إلى أن المقصود "بالتين"

---

[4] حسن ظاظا، القدس، ص46

[5] د إسحاق موسى الحسيني، القدس عروبتها، مكانتها في الإسلام، دار القلم، دمشق، 1420 موافق 2000، ص42

[6] م.س.ص42

[7] سورة الإسراء: 1

[8] سورة التين: 1

حسب الرواة مسجد نوح الذي بني على الجودي أو مسجد دمشق أو الجبل الذي يلي هذه المدينة، وإلى أن "طور سنين" هو جبل سيناء.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن سماها كذلك "قرية" [9] كما سماها "الأرض المقدسة" في قوله تعالى: " يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة" [10]

وتعتبر القدس من أهم المدن في العالم لما تتمتع به من مكانة مقدسة من الديانات الثلاث. ويعود تاريخ هذه المدينة المقدسة إلى ستة آلاف سنة عندما حل اليبوسيون في المنطقة الجبلية التي تقع عليها القدس حاليا [11].

واليبوسيون هم فرع من القبائل الكنعانية العربية، وهم الذين أسسوا القدس لأول مرة في التاريخ حوالي سنة 4000 ق.م، بعد أن أقاموا في مكانها وفيما حولها عدة قرون [12].

وفي أثناء الألف الرابعة قبل الميلاد، هاجرت من قلب الجزيرة العربية قبائل العموريون والكنعانيون واليبوسيون، وفي هذا الصدد ذكر العالم إبطوماس المختص بدراسة القدس في جامعة إيرلندا الشمالية أنه وجدت آثار هذه القبائل التي هاجرت إلى نواحي القدس منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل قدوم العبرانيين إلى القدس.[13]

---

9 سورة البقرة: 259.

10 سورة المائدة: 21.

11 عباس الجراري، القدس الشريف، منشورات النادي الجيراري، الرباط 1419 موافق 1998 م ص10-12.

12 رفيق النتشة، القدس عربية، ص 169-170.

13 م.ن.ص170.

لقـــد ثبت تاريخيا بما لا شك فيه أن القدس مدينة عربية بناها اليبوسيون منذ حوالي ستة آلاف سنة سموها أورشليم، وذلك قبل دخول داود عليه السلام إليها بنحو ثلاثة آلاف سنة. [14]

والعبرانيون الذين دخلوا القدس بقيادة داود ليسوا جنسا أو عرقا صافيا من الأجناس السامية العربية أو الهندية أو الأوروبية أو غيرها (كما هو الحال حاليا) بل هم، بإجماع المؤرخين خليط متنوع جدا من البدو وقطاع الطرق والعبيد. [15]

وأن اسم "إسرائيل" وهو إسم عربي كنعاني، أطلق على مكان في فلسطين، كما يقول علماء الآثار. ومنه أخذ اسم يعقوب عليه السلام. هذا وأن موجة القبائل التي كانت بقيادة داود عليه السلام والتي احتلت القدس وأنشأت دولة فيما حولها لم يتجاوز اتساعها أكثر من 130 ميلا في أطول اتساعها و60 ميلا في عرضها. هذه الدولة لم تدم أثناء حكم داود وسليمان عليهما السلام أكثر من سبعين عاما بصورة مستمرة [16]

كما يستطيع الدارس القول دون زلل أن اليبوسيين والكنعانيين ظلوا حكام القدس والبلاد وسكانها منذ إنشاء هذه المدينة المقدسة نحو 4000 سنة ق.م وإلى سنة 1000 ق.م [17].

ومن المعروف لدى المؤرخين أن اليهود الذين سكنوا القدس أيام داود وسليمان كانوا قليلي العدد لأن اليبوسيين لم يغادروا مدينتهم، ولأن المدينة لم

---

[14] رفيق النتشة، القدس عربية، ص170-171.

[15] م.ن.ص171.

[16] م.ن.ص171.

[17] م.ن.ص 171.

تتوسع إلا بقدر زهيد زمن سليمان لحساب قصوره والهيكل الذي بناه. وتتحدث التوراة في أكثر من موقع عن غزارة الكنعانيين[18]

وقد تناول ظاهرة استمرار الجنس العربي في القدس وفلسطين منذ أقدم العصور أكثر من باحث أجنبي، فكانت خلاصة ما وصلت إليه السيدة "فرنسيس إميلي نيوتن" عضو الجمعية الملكية البريطانية، أن العرب لا اليهود هم أصحاب تلك الصلة التاريخية الثابتة المتمادية غير المنقطعة. وعند السير"جيمس فريزر" أن الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين هم سكانها قبل الغزوة الإسرائيلية. وأنهم ما زالوا متصلين بالأرض لم ينفكوا عنها، ولا أقلعوا منها، وإن طغت عليهم الغزوات الخارجية فإنهم ثبتوا وأقاموا[19].

ووصف المؤرخ "برستد" مقاومة القدس لعدوان العبرانيين فقال: "وحين دخل العبرانيون فلسطين وجدوا فيها الكنعانيين يقيمون في مدن زاهرة تحيط بها الأسوار الضخمة فلم يستطيعوا أن يفتحوا منها إلا مدنا ضعيفة. [20]

وقد درج الإسرائيليون على وسائل النهب والإغتصاب وطرد السكان من أراضيهم. ومن الغريب أن تصبح هذه الوسائل بعدئذ في تراثهم أمرا دينيا من ربهم-حسب زعمهم-.

والجدير بالذكر أن اليهود لا يملكون آثارا أو أماكن دينية مهمة على الرغم من الضجة العالمية. ولكن لهم عرفا تقليديا في البكاء خارج القسم الجنوبي للحائط الغربي للحرم الشريف الذي هو ملك إسلامي. ويدعي اليهود أن هذا الحائط أثر من هيكل سليمان والحقيقة التاريخية تغاير ذلك كله. فقد دمر هيكل

---

[18] م.ن.ص 171-172.

[19] م.ن.ص. 171.

[20] م.ن.ص172.

سليمان كله أكثر من مرة تدميرا تاما، و لم تكشف الحفريات طوال مائة سنة عن أثر لأي شيء يتعلق بالهيكل [21].

وعند الاحتلال البريطاني سنة 1918، لم يكن اليهود يملكون أكثر من 2% من الأراضي. أما عند انتهاء الاحتلال سنة 1948، وعلى الرغم من جميع المحاولات التي بذلوها خلال فترة الانتداب، فلم تزد ممتلكاتهم على 5,67% من مجموع الأراضي. ولكن مع الأسف الشديد، على الرغم من سخط هذا المنطق وثبوت الحق التاريخي للعرب بفلسطين، إلا أن القوة الظالمة نصرت الباطل بسبب دعم الاستعمار الأوربي والأمريكي للصهيونية في عدوانها، بينما العرب والمسلمون في سباتهم غافلون [22]، ويكفي أن نورد قول "ابن غوريون" أول رئيس وزراء لدولة الاحتلال يؤكد أن ليس لليهود حق في فلسطين وقال في هذا الصدد: «لسنا عميانا إننا على علم أكيد بأن فلسطين ليست بلدا خاويا، بل إننا نعرف أن ملايين العرب يسكنون في الأراضي الواقعة بين ضفتي نهر الأردن الغربية والشرقية، كما أن هناك ملايين العرب من الذين قطنوا فلسطين منذ أولوف السنين، وأنهم يعتبرون أنفسهم بحق أبناء فلسطين"[23].

وأضاف قائلا: «ليس العرب في حاجة إلى شراء أراضيهم، وليسوا في حاجة إلى هجرة عرب إلى فلسطين لأنهم أصحابها الشرعيين فهم يقيمون فيها، إن كل شيء في فلسطين هو ملك للعرب ما عدا الحكومة»[24].

---

21 م.ن.ص 173.

22 م.ن ص 174.

23 م.ن ص .174

24 م.ن ص174.

وقد بين "غولدمان" رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي السابق أن سبب رغبة الصهيونية في احتلال فلسطين يعود إلى أهمية موقعها الاستراتيجي، وليس لمعناه الديني [25].

والجدير بالذكر أن القدس عرفت حدثا عاما جدا. ويتعلق الأمر بمعجزة إسراء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى، قال الله عز وجل:«سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الدي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير[26]

وقد كانت القدس وقتئذ تحت الحكم البيزنطي المسيحي، وكان الإسلام في بدايته، ولكن الله جلت قدرته شرف المسجد الأقصى ورفع مكانته بجعله مسرى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر اسمه في القرآن الكريم، وسبق في علمه تعالى أن يكون هذا المسجد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين[27] و لم يقع جلاء البيزنطيين عن المدينة المقدسة إلا في سنة 17هـ/638 م. حينما دخلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخولا سليما، وصلى في حرم الصخرة حيث بنى الأمويون بعد ذلك قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف [28]، ومن يومها والقدس تابع للخلافة الإسلامية إلا ما كان من احتلال الصليبيين له أثناء الحروب الصليبية في القرن 5هـ/11م، إلى أن حررها صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري 12م. ومن وقتها عاد القدس إلى قداسته وطهارته. وصار أرض سلام ومحبة ووئام، تساوى فيه الناس من جميع الأديان السماوية، طبقا

---

25 م.ن ص 174.

26 الإسراء : 1.

27 28 محمد العربي الشاوش، المسجد الأقصى وحقيقة الإسراء والمعراج، دعوة الحق ع 5 س 22، شوال 1401 غشت 1981 ص 187.

28 م.ن ص 189.

للتسامح الديني الذي نصت عليه الشريعة الإسلامية بقوله تعالى:"لا إكراه في الدين"[29]. مع التأكيد على أن الدين الذي ارتضاه لعباده هو الإسلام، كما جاء في كتابه العزيز:«ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» [30].

وبقي بيت المقدس بين أصحابه المسلمين حوالي سبعمائة سنة إلى أن جاء عام 1918 عندما انخدع المسلمون، وانضموا إلى جيش "الان بي" يقاتلون إخوانهم الأتراك مقابل وعود وهمية. والدليل على ذلك أن الجنرال المذكور أعلن أمام العرب عند انتصاره وطرده للأتراك، وبأعلى صوته "الآن انتهت الحروب الصليبية" وقد فعل بعده بعامين القائد الصليبي الجنرال الفرنسي "غورد"، عندما دخل دمشق وهو يقف على قبر صلاح الدين الأيوبي ليعلن أيضا بأعلى صوته " ها نحن عدنا يا صلاح الدين"[31].

---

29 البقرة : 256.

30 آل عمران : 25.

31 32 . رفيق النتشة، القدس العربية، ص 185- 186.

منطقة الخليج العربي في العصر الوسيط
من خلال رحلة "ناصر خسرو"

ذ. احمد المحمودي
كلية الاداب – مكناس

لا يخفى على المهتمين بالدراسات الخليجية الشغف والاهتمام الذي أولاه الرحالة العرب والمسلمون بمنطقة الخليج العربي في العصر الوسيط، مما أسفر عن ثورة متنوعة وشاملة لمجالات مختلفة. ولقد بينت هذه الدراسات عن أهمية هذه المصنفات في الكشف عن حقائق تاريخية لهذه البقعة الحيوية من العالم الإسلامي.

ففي الحقيقة أن القسم الأكبر من هذه الثروة قد عبثت بها يد الدهر، وما زالت العديد من المصنفات مخطوطة لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية النشر والتحقيق.

مع ذلك فبالمقارنة مع غيرها من المصادر تشكل كتب الرحلات بصدق من أهم المصادر، فهي تحتوي على مادة غزيرة ومتنوعة لم تستغل بعد بما فيه الكفاية، سواء فيما يتعلق بالتأريخ للاتجاهات الفكرية والمذهبية أو بمختلف الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ناهيك عن المظاهر الطبيعية والعمرانية. والظاهر أن المادة الواردة في كتب الرحلة تمكن الباحث من تجاوز التاريخ السردي وتناول المواضيع المرتبطة بالبلاد والسكان والإنسان في علاقته الجدلية الحميمية مع موطنه ومما يزيد هذه التآليف أهمية كونها تقدم نظرة مزدوجة، توفق بين المحلية الدقيقة وبين الشمولية للمجال العربي الإسلامي، مكرسة بذلك التقارب بين الأمم والشعوب بانتقال الأفكار والمعرفة دون حدود ولا حواجز.

وننوه أننا قصدنا –بوعي- الاقتصار على رحلة واحدة فقط في تقـديم هذا العرض بهدف تبيان أهمية معلوماتها من ناحية وتقديم رؤية إسلامية خالصة توضح منظور العرب والمسلمين إلى منطقة الخليج بما يكـشف عـن حقيقـة التواصل الحضاري بين جناحي العالم الإسلامي، بـرغم الـضعف الـسياسي والعسكري والانهيار الاجتماعي الذي شكل بنية العصر الذي نظمت فيه رحلة ناصري خسرو.

على أية حال، من هدف هذا العرض ولا في مكنته استيعاب مجمل مـا احتوته الرحلة من قضايا وأخبار تهم هذه المنطقة، وبالتالي نكتفي بالإشـارة إلى ما يطبعها من ثراء معرفي وما تتسم به من تنوع وشمولية فيمـا تعرضـه مـن جوانب اجتماعية، ونضيف بأنها تجسيد صادق لثقافة العصر وبعض قسماته في العالم العربي ومنطقة الخليج.

غير أنه من الطبيعي أن نؤكد على صعوبة الجزم بمدى موضـوعية مثـل هذه الكتابات، وكذا ما يصادفه الباحث من عناء في الفصل بين ما هـو ذاتي وبين ما هو موضوعي في متضمنات هذه التآليف.

كم كنا نود أن نتحدث عن جميع الرحالة العرب والمسلمين، وعن مـا خلفوه من تراث معرفي عن هذه المنطقة، ولكن نحن مـضطرون إلى الاجتـزاء بالقليل من ذلك كله. والذي نأمله هو أن يكون في هذا الذي ننقله ونتحـدث عنه فائدة ومتعة.

للإشارة فناصري خسرو فارسي الأصل والنشأة والثقافة، ولد بـالقرب من بلخ سنة 394هـ/ 1003م وتأدب في علوم عصره ونال حظـا وافـرا مـن معارفه، وزار الهند وعمل في بلاد الغزويين. ثم عاد إلى فارس وشـغل منـصبا كبيرا عند السلاجقة، إذ كتب لجعفر (أو جفري بك)، وهو أخ لطفرل بـك،

وكان منغمسا في الملاهي والملذات حتى تراءى له في ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسر إليه بزيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح [1]، فكان لهذا الحلم أثر بالغ في نفسه، أدى إلى تغيير حياته، فأقلع عما كان فيه حالا وسـار للحج في العام التالي[2].

للإشارة فناصري خسرو بدأ رحلته من مرو ووصل إلى القـدس سـنة 438هـ مارا بنيسابور وحران وسوريا وبيروت، والرملة. وقـضى في القـدس أربعة أشهر ثم حج وعاد القدس بطريق **دمشق** وسافر إلى مصر برا عن طريق عسقلان فوصل في 7 صفر سنة 1439هـ/1407م. وأقام في مصر ثمانية أشهر ثم حج ثانية وعاد، وظل ينتقل في بلاط المستنصر سنتين إلى أن غـادر عاصـمة الفاطميين نهائيا في 14 ذي الحجة سنة 441هـ نيسان (أبريل) سنة 1050م بطريق عيذاب إلى جده. وبعد أن حج للمرة الأخيرة عاد برا إلى بلاده، بعد أن اجتاز الطريق من مكة إلى الحسا برا وزار البصرة، فوصل مرو في 15 (حزيران) يونيو سنة 1052م[3].

والجدير بالذكر أن ناصري خسرو كان إسماعيليا منذ شبابه، وفي أثنـاء إقامته في القاهرة تدرج في مناصب الدعاة للإسماعليين وقابل الخليفـة نفـسه، وكان يرى أن القاهرة المركز الديني لمذهبه وأن الخليفة هو الإمام الحق[4]. ولـما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة. وقد نقل بروان عن جـامع التـواريخ أن

---

1 -ناصري خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنـشر، 1945، ص: 1-2.

2 -نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1982، ص: 152.

3 -نفس المرجع، ص: 152.

4 -يحيى الخشاب، م، س، ص: 2.

ناصري خسرو قضى سنوات طويلة متخفيا في جبال خرسان، لما اشتد السلاجقة في طلبه. وبقي في منفاه هذا إلى أن توفي سنة 542هـ/1060م.

والظاهر أن رحلة ناصري خسرو التي عنونها: "سفر نامة" اكتسبت أهمية كبيرة بين مصادر ومراجع تاريخ الخليج العربي ومن دون شك فإن المعلومات القيمة والأوصاف الدقيقة التي أتى بها في هذا الكتاب جعلته يحتل مكانة معتبرة بين كتب الرحلة للرحالة المسلمين. ومهما يكن من شيء فإن رحلة ناصري خسرو كشفت عن حقائق كثيرة في تاريخ الخليج العربي في العصر الوسيط. ومما يدل على دقته في الوصف ذكره المد والجزر في الخليج العربي وعلاقة ذلك بالفيضانات(1).

وبجانب هذه المزايا المذكورة، نشير أن هذه الرحلة تجسيد لثقافة العصر وبعض قسماته، فهي تقدم نظرة مزدوجة، فقد أرخت هذه الرحلة لأهم وأدق فترات تاريخ العالم الإسلامي، الذي عرفته رقعته السياسية والجغرافية في القرن الرابع الهجري عملية التشرذم والانشطار رغم بعض المحاولات التوحيدية التي اصطدمت بالنعرات العقدية والاثنية.

وما يعنينا في هذا المقام أن رحلة ناصري خسرو فتحت آفاق جديدة أمام الباحثين والدارسين –رغم قصر مدتها–، خاصة وأنها في سياق الصحوة السنية التي تطاولت أعناقها ونجحت في الظفر ببعض المناطق واحتوائها وتكوين كيانات سياسية –كالدولة المرابطية في الغرب والدولة السلجوقية في الشرق الإسلاميين – خلقت متاعب للدولة الفاطمية في مصر والمناطق التابعة لها. ومن المرجح أن زيارة ناصري خسرو لمنطقة الخليج في هذه الفترة بالضبط تأتي لتطويق الخطر الذي اقتضته الظروف الجديدة من أجل تكثيف الجهود والتعاون

---

1 -نقولا زيادة، م، س، ص: 156.

بين الدولة الفاطمية والمناطق التابعة لها ليقفوا معا صفا واحدا أمام التيار السني المتمثل في الدولة السلجوقية – الذي اقتلع الدولة البويهية وأخذ في محاربة المذهب الفاطمي، وخاصة إذا علمنا أن ناصري خسرو كان داعية إسماعيليا –كما سبقت الإشارة– وظل يدافع عن معتقده منذ شبابه سواء داخل مصر أو خارجها.

وبخصوص المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، والعقدية التي تكتنف هذه الرحلة نشير أن منطقة الخليج كانت مركز استقطاب لعدد من التجار الذين تقاطروا على مختلف جهاتها بغرض التجارة[1]. فهي تربط عدة مناطق، وقد ساهم بشكل كبير في تطوير المبادلات التجارية وتكثيفها. وتقدم هذه الرحلة معلومات حول المواد المصدرة التي تعد من أهم مواردها المالية، كالفوط التي كانت تصدر إلى البصرة.

وتعد الأسواق مرآة عاكسة لحجم النشاط التجاري ومداه باعتبارها المجال الحيوي لذلك النشاط. فقد اشتملت مدن الخليج على عدد من الأسواق الكبرى ذات الطابع المركزي التي تجتمع فيها أصناف التجارات والباعات والصناعات، وكانت غالبا ما تقع خارج الأسوار حيث تؤدي دورها الحيوي في عمليات التبادل[2]. ويبدو أن عبئ الإشراف الإداري وقع على سادات هذه البلاد الذين كانوا يتلقون المعاونة اللازمة من أجهزة مخصصة في هذا الإطار التي كانت مراكزها عادة ما تقع على مقربة من الأسواق لقمع أي بادرة للاضطراب والعصيان بها كما هو الشأن في بغداد في نفس الفترة[3].

---

1 -ناصري خسرو، م. س، ص: 160.

2 -نفسه، ص: 158.

3 -عمر البشرواي: عامة بغداد في العصر السلجوقي، دكتوراه الدولة في التاريخ/، جامعة عين شمس، 1992، (مرقونة) ج1، ص: 178.

والجدير بالذكر أن جل الشرائح الاجتماعية المكونة للمجتمع الخليجي ساهمت في تنشيط الحركة التجارية داخل هذه الأسواق، وخاصة الشرائح الدنيا التي تنتمي لفئة العامة الذين مارسوا نشاطهم كدلالين ووسطاء، فكان منهم أيضا الحمالون والباعة وهي وظائف لا غنى عنها في العمليات التجارية داخل الأسواق في المجتمعات العربية والإسلامية الوسيطية[1].

وقد ارتبطت بعض هذه الحرف والصناعات بالميدان التجاري، كان يعول عليها في تنشيط الحركة التجارية الداخلية. ومن أجل ذلك أفردوا لها مرافق خاصة داخل أسواق المدن التي حظيت باهتمام فائق. وكانت المبادلات التجارية تتم غالبا بواسطة رصاص في زنابيل "يزن كل منها ستة آلاف درهم"[2]، وهذه المبادلات فهي محلية لا تسري على التجارة الخارجية[3].

وتنهض ظاهرة استخراج اللؤلؤ من البحر قرب سواحل مدن الخليج، أدلة ساطعة على الغنى والتنوع الذي كانت تعرفه البنية الاقتصادية للمنطقة. وتفصح رحلة ناصري خسرو أن سلاطين الحسا كانوا يستولون على نصف ما كان يستخرجه الغواصون[4]، وهو ما كان يخالف النسبة الشرعية لنصيب الدولة من الزكاة[5].

---

1 -أحمد المحمودي: عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب مكناس، (مرقونة) سنة 2000، ج1، ص: 120.

2 -ناصري خسرو، ص: 160.

3 -نفسه ونفس الصفحة.

4 -نفسه ونفس الصفحة.

5 -اشار ابن بطوطة في عهده أن السلاطين كانوا يجبون خمس اللؤلؤ المستخرج (حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلته) تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف 1980، ص: 112.

وتتواتر الإشارات رغم ضآلتها عن الجانب المعماري لمنطقة الخليج، فقد تجسدت السمات العامة للمدن بالحفاظ على الأمن والاستقرار، حيث شـيدت أسوار قوية "باللبن المحكم البناء"[1] تحيط بها لحمايتها، كما اشتملت هذه المدن على قلع بداخلها مدن جميلة تتوفر بها كل وسائل الحياة التي كانت متـوفرة في المدن الكبرى ما يقدم عددا من المؤشرات الدالة عل الحركة والنمو الذي كانت تشهده المنطقة. كما كانت تضم هذه المدن أيضا محاربين يسهرون عل سلامتها وأمنها[2]، ومن المرجح أن هذا النوع من الهندسة المعمارية قد اتبع –بشكل أو بآخر– في أغلب مناطق الخليج العربي. واحتل الماء أيضا مكانة هامـة داخـل المدن. فالعيون كانت تتدفق بشكل مكثف فكل واحدة منـها تكفـي لإدارة خمس سواقي[3]. وفي اليمامة كانت المياه تجري في قنوات، وتستهلك بكاملـها فلا يخرج منها أي شيء[4].

والظاهر أن أهل الخليج كانوا يهتمون بالتوسع في المعيشة والتنـوع في المآكل والمشارب، ومن الطبيعي أن تشتهر بعض المناطق بـألوان معينـة مـن الأطعمة- كاشتهار أهل الحسا ببيع لحوم الحيوانات كلها" من قطط وكـلاب وحمير، وبقر وخراف وغيرها[5].

ويستفاد من رحلة ناصري خسرو أن الجزار كان يـضع رأس الحيـوان وجلده بجانب لحمه ليكون المشتري على علم من نوع اللحم الذي يـشتريه[6].

1 -ناصري خسرو، م، س، ص: 159.

2 -فمدينة الحسا مثلا كانت تضم أكثر من عشرين ألف محارب، ناصري خسرو، م، س، ص: 159.

3 -نفسه، ص: 159.

4 -نفسه، ص: 158.

5 -نفسه، ص: 161.

6 -نفسه، ص: 161.

وتتم هذه الظاهرة بدون شك عن استشراء وتفاقم الفساد والتدليس في عمليات البيع والشراء. كما أضاف أن أهل الحسا تنامى شغف تسمين الكلاب والأكباش عندهم "حتى لا تستطيع الحركة من سمنها"[1]، ثم يذبحونها ويبيعونها ويبيعون لحمها. ومن المرجح أن تكون الأنواع الجيدة من أحسن أصناف اللحوم في متناول الأسياد والشرائح المكونة لفئة الخاصة. أما العامة فغالبا ما كانوا يضطرون –نظرا لقلة الكسب- للإقبال على الأنواع الأرخص سعرا والأسهل منالا.

ويستفاد من الرحلة أيضا أن الزراعة تمثل الحرفة السائدة والقارة، لذلك أصبحت قوام الاقتصاد في هذا العصر[2]، ويكشف عن ذلك وفرة الإنتاج وتنوعه كالجوز الهندي المسمى بنارجيل[3] والنخيل والتمر الذي يباع في اليمامة والحسا بدينار واحد لألف منه[4] وقد ارتبط بالزراعة الرعي وتربية المواشي التي طعمت الميدان التجاري بالإبل من أجل التنقل، والأسواق باللحوم الطرية الجيدة. وقد اشتغل بالزراعة وفلاحة البساتين في ذلك الوقت العبيد الزنجيين والحبشيين، وكان أسياد الحسا وربما المدن الخليجية الأخرى يأخذون عشورا من الرعية[5]. وبجانب هذه الملامح المذكورة تغلغل ناصري خسرو إلى طبيعة حياة سكان منطقة الخليج. فقد عبر عن أسفه لما شاهده وعايشه خلال تسعة

---

1 -ناصري خسرو، م، س، ص: 161.

2 -نفسه، ص: 161.

3 -نفسه، ص: 159.

4 -فائق شهرة الجوز الهندي منطقة الخليج، نفسه، ص: 161.

5 -كان أهل الحسا يسمنون بالتمر نظرا لكثرته وجودته، نفسه، ص: 161.

أشهر التي عاشها بينهم من انتشار ظاهرة الأوساخ بين البدو[1] فهم "لم يروا الحمامات أو الماء الجاري في حياتهم[2].

وإذ يصعب الإلمام بكل تفاصيل مثل هذه الظواهر التي تورد الرحلة إشارات خجولة لبعضها، نؤكد أن كتب الجغرافية والمسالك تزخر بمعلومات إضافية عن ما تزخر به منطقة الخليج العربي من صور اجتماعية، تكشف عن عادات وأنماط حياة هذا المجتمع العربي الأصيل وعلاقته الجدلية مع موطنه.

والظاهر أن المعلومات المرتبطة بالحياة الدينية لمنطقة الخليج جاءت شحيحة في هذه الرحلة. فأغلب ما تقدمه جاء عرضا أو اضطرارا واحتراما لارتباط الوقائع، ومن تم لا تسمح بقراءة شاملة ودقيقة إذا ما قورنت بجوانب أخرى التي حظيت بمكانة خاصة، لذلك لا مناص للباحث الذي يطمح للوقوف عند أدق التفاصيل أن يوسع دائرة المصادر لتشكل المصادر التاريخية وكتب المماليك والمسالك، فضلا عن كتب التراجم والجغرافية التي كانت أكثر سخاء من كتب الرحلات.

ومن الطبيعي أن ينعكس واقع الصراعات والخلافات التي مزقت المجتمع الإسلامي عل الخريطة المذهبية لمنطقة الخليج، ونظرا لبعد هذه المنطقة عن مركز الخلافة، استطاعت بعض المذاهب أن تقيم بها ركائز قوية هناك وأن تضم إلى صفوفها جماعات قليلة لم تفلح في توسيع دائرة نفوذها السياسي الذي انحصر في نطاق بالغ وذلك بسبب تعقب السلطة لتنظيماتها، فضلا عن نفور الشرائح الاجتماعية من تطرف أفكار بعضها.

---

[1] -فيهم كانوا يشبهون أهل الحسا في هذه المنطقة، نفسه، ص: 162.

[2] -نفسه، ص: 162، فقد ذكر ناصري خسرو أنه كان لا يستطيع شرب اللبن الذي كانوا يقدمونه له.

تفصح رحلة ناصري خسرو عن انتشار المذهب الزيدي في اليمامة فهم يقولون في الإقامة "محمد وعلي خير البشر وحي علي خير العمل"[1]. فالزيدية هم أتابع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (79- 128/ 698- 740م). ولا مراء أن أغلب الباحثين في مجال الدراسات الإسلامية يقرون أن الزيدية فرقة بالمعنى المتعارف عليه في علم الكلام الإسلامي، غير أن النشأة والتاريخ بل الواقع المتجسد في النية الفكرية للزيدية لا يقول أنها مستقلة استقلالا كاملا ولا متميزة تميزا تاما عن تيار للاعتزال[2].

لقد بدأت الزيدية "ثورة معتزلية" ضد الدولة الأموية قادها إمام ثائر من أئمة آل بين الرسول عليه السلام، على عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (71- 125/ 690- 743) ثم استمرت ممثلة للتيار الثوري في أمراء آل البيت الذين قادوا تيارا فكريا يتمذهب بأصول المعتزلة الخمسة في العقائد، مع اختلافات طفيفة في بعض المسائل السياسية الخاصة لمبحث الإمامة على وجه التحديد... فهم معتزلة في الأصول، وهم تيار الثورة في آل البيت والاعتزال على السواء.

وتتواتر الإشارات في هذه الرحلة عن الحضور المكثف للحركة القرمطية في مدنية الحسا، الذي صاحبها أبو سعيد يدفع الخمس لخليفة الفاطمي القائم رغم أن اعترافه بشرعيته لم يكن كاملا[3]. ويبدو أن العلاقة بين الفاطميين في مصر وقرامطة الحسا قد انكمشت وتصدعت خاصة في عهد سليمان بن الحسن بن بهرام الملقب بأبي طاهر الذي قام بهجوم على مكة ونزع الكسوة، واقتلع

[1] -ناصري خسرو، م، س، ص: 159.

[2] -محمد عمارة: تيارات في الفكر الإسلامي، بيروت 1985، ص: 97.

[3] -محمد عمارة، م، س، ص: 97.

الحجر الأسود ونقله إلى الحسا، معتقدا أنه مغناطيسي يجذب الناس إليه من كل أطراف العالم[1]، وبقي هناك عشرين سنة إلى أن أمر الخليفة الفاطمي المنصور برده إلى مكانه سنة 339/ 950م[2].

ولا مجال للخوض في أدق تفاصيل تاريخ هذه الحركة، إذ نؤكد أن أبحاثا ودراسات قيمية أنجزت في هذا المجال تزخر بمعلومات شاملة وفاحصة تشفي غليل الباحث المتعطش.

فقرامطة الحسا حسب ما ذكره ناصري خسرو كانوا يقرون بمحمد ص وبرسالته غير أنهم كانوا لا يصومون ولا يصلون، كما لا يوجد بالمدينة مسجد جمعة ولا تقام صلاة ولا خطبة وحين يسألون عن مذهبهم يقولون: "أنا أبو سعيديون"، وهم بذلك يلغون أحكام الإسلام الأساسية، وهذا ما يقودنا إلى تنبيه الإنسان المسلم أنه لا مجال لتصديق بعض الكتابات الهدامة والمشبوهة التي تحاول تزيين وجه الحركة القرمطية المجعد وغيرها من حركات الردة والتخريب في العالم الإسلامي على أنها حركات إصلاحية وأن قادتها رجال أحرار ينشدون العدالة والحرية[3].

ومن الأفكار المتواترة أيضا أنهم كانوا يقولون بالرجعية، وليس أدل على صدق ما نذهب عليه أن أبا سعيد قال لهم "إني راجع إليكم"[4]، يعني بذلك وفاته. ومن الأغلاط البينة أن القرامطة وضعوا رهن إشارته حصانا بجانب باب

---

1 -برنارد لويس: أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، دار الحداثة، ط1، 1980، ص: 134.

2 -ناصري خسرو، م، س، ص: 160. الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض 1982، ص: 396.

3 -ناصري خسرو، م، س، ص: 159، إلا رجلا فارسيا في ومسلم وحاج، بنى مسجدا في مدينة الحسا.

4 -ناصري خسرو، م، س، ص: 159.

قبره مهيأ بعناية فائقة، "يقف بالنوبة ليلا ونهارا"[1]، وهم يزعمون أن أبا سعيد يركبه حين يرجع إلى الدنيا، ويقال أنه قال لأبنائه "حين أعـــود ولا تعرفـــوني اضربوا رقبتي بسيفي، فإذا كنت أنا حييت في الحال". وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدعي أحد أنه أبو سعيد[2]. ويخيل إلينا أن ما نراه من هذه الأفكار مـــا هي إلا ضرب من الهرطقة والبدع ولا تخدم الإسلام والمسلمين في شيء، غير أن مثل تلك الأفكار محكوم عليها بالعجز والوهن ويكـــون مـــصيرها الـــسقوط والزوال، شفيعنا في ذلك ما حدث للحركة القرمطية التي أقبرت عن آخرها في الإحساء والبحرين.

ويبدو أن الهيكل التنظيمي لهذه الحركة في مدينة الحسا يتمثل في كـــون القيادة بيد ستة سلاطين يسمون "بالسادات" ويساعدهم في مهامهم ستة وزراء يسمون بالشارة"[3].

فالسادات يقطنون قصرا منيفا يعرف "بدار الهجرة"، وهو دار ملكهـــم، ويحتوي على تخت يجلسون عليه ويصدرون أوامـــرهم بالاتفـــاق[4]. كمـــا أن السادات يتشاورون ويتداولون مع وزرائهم في أغلب القضايا التي تهم تـــسيير شؤون الرعية. وبديهي أن يعمد السادة إلى الحفاظ على أمنهم وأمن ممتلكـــاتهم واستقرار ملكهم وذلك بتجييش ألف جندي من العبيد الزنوج والحبشيين الذين كانوا يشتغلون في نفس الوقت بالزراعة وفلاحة البساتين والحراسة[5].

---

1 -نفسه، والصفحة.

2 -نفسه، والصفحة.

3 -ناصري خس

4 -نفسه، ونفس الصفحة.

5 -ناصري خسرو، م، س، ص: 159.

وتكثر ضمن ثنايا هذه الرحلة أوصاف التقـدير والإعجـاب بالبعـد الاجتماعي لهذه الحركة. فالأسياد تعاظم شأنهم في مدينـة الحـسا فكـانوا لا يأخذون عشورا من الرعية، ويرفعون آفة الفقر على المستضعفين، فـضلا عـن مساعدة ذوي الحاجات بإقراضهم المال بدون فائدة، وتسديد ديون آخـرين، والترحيب بالغرباء وتشجيعهم بالمال، وانتـشرت بـذلك فكـرة التكافـل الاجتماعي التي عولوا عليها من أجل حشد جمهور كبير من الأنصار وتجنيدهم ودفهم إلى العمل لغاية يجهلونها.

كما عمد الأسياد على حث الرعية على الشغل وذلك بالـسماح لهـم باستعمال مطاحنهم مجانا وإعفائهم من نفقات إصلاحها. و لم يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل التزموا بدفع أجور الطحانين وتعهدوا بإصلاح طاحونات المـلاك من الرعية حيث "يأمرون عبيدهم بأن يـذهبوا إليـه ويـصلحوا المـترل أو الطاحون"[1].

خلاصة القول، لا نجادل في أهمية ونوعية ما تكتنفه هذه الرحلـة مـن أفكار ومشاهدات وآراء خاصة لمنطقة الخليج العربي في العصر الوسيط، ومـا زخرت به من توصيفات وصور تهم جوانب عدة من تاريخ وحضارة هذا الجزء من العالم العربي. فالرحلة فتحت آفاقا جديدة في البحث ودراسة التراث العلمي والفني| ، ونظرا لما تضمنته من معلومات قيمية عن المجتمع الخليجي لفتت أنظار المهتمين بالدراسات الإثنية والطوبونيمية، فضلا عن الاقتصاد والمجتمع. والجدير بالذكر أن هذا المجتمع بمكوناته البشرية والفكرية والحضارية لم يختلف عن نظيره في الغرب الإسلامي خاصة وفي سائر بلاد العالم الإسلامي عامـة، وإذا كـان

1 -ناصري خسرو، م، س، ص:160.

لذلك دلالة. فهي القطع بوحدة الصيرورة التاريخية في العالم الإسلامي بأسره إبان العصر الوسيط.

في التصوف المغربي

"آل أمغار تيط أو عين الفطر: بين الواقع التاريخي والخيال "

ذ. إدريس أبو إدريس
كلية الآداب –مكناس

- يقول أحد المفكرين: "**إن الذي يتبقى من الحياة، ليس الحياة بنفسها وإنما أسطورتها** . "

نعم، الذي يبقى من الحياة هو حكايتها المكتوبة والمنطوقة، لكن على كل باحث في هذا المكتوب والمنطوق أن يلتزم الدقة والموضوعية في التحليل وألا يطلق العنان للخيال وللأحكام المسبقة أن تستحود على تحليله،ومعالجته للواقع والأحداث التاريخية وخاصة وأن المصادر متوفرة، وإن كانت في بعض الأحيان متضاربة، إلاأن الوسائل المنهجية المتوفرة لدى المؤرخ تمكنه من غربلة الأحداث واستخراج الحقيقي والمزيف والتلفيقي .

-هذا ما لم يلتزم به الزميل الأستاذ بولقطيب –رحمه الله- في مقالته المنشورة بجريدة الإتحاد الإشتراكي، الملحق الثقافي 13 أكتوبر سنة 2000، فقد ارتكب الأستاذ المرحوم عددا من الأخطاء،لاشك أن من أسبابها التسرع وعدم الوقوف على حقائق الأمور ...

وسأبدأ بالتركيزعلى نقطتين أساسيتين، تتفرع عنهما عدة ملاحظات :

1- عين الفطر أو تيط وهي مدينة آزمور، ويمكن اعتبار العين ضاحية من ضواحي المدينة، والتي استقر فيها أولياء آل أمغار، فكل الجغرافيين والرحالة القدامى تحدثوا عن آزمور المجاورة لأم الربيع وعن قبيلتها صنهاجة، لذا فالبحث

عن عين الفطر أو تيط هو البحث عن آزمور، المدينة المشهورة، وما تيط إلاموضعا بجوار المدينة استقر فيه آل أمغار، ولهذا نلاحظ أن كل الجغرافيين والمؤرخين والإخباريين لا يذكرون إلاكلمة "موضع"، والذي أصبح رباطا لآل أمغار. وابن عبد العظيم نفسه لقب بالأزموري لإنتمائه إليها، لذا كان يؤرخ المدينة لمعرفته الجيدة بساكنتها، والظروف والملابسات السياسية التي مرت منها، ومتعمق في معرفة بيوتاتها، ومنهم آل أمغار الشرفاء... وأن المنطقة كانت تحت نفوذ الأدارسةفي القرن 3هج /9م. (انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، والبكري: المسالك والممالك، وابن أبي زرع: روض القرطاس، وياقوت الحموي: معجم البلدان).

ثم وقعت تحت سيطرة بورغواطة في القرن 4هج/10م، وهذه نقطة أساسية في تفسير مجيءإسماعيل إلى هناك.. (والتي قال عنها الأستاذ "أن الحلم دفعه إلى الإنتقال من المشرق إلى موضع تيط !!!)

إذن لا داعي للبحث في شيء غير موجود، فما تيط إلا موضعا صغيرا بالقرب من المدينة المعروفة: آزمور، والذي كان رباطا لآل أمغار في المجاهدة ضد الغزاة،وضد الكفر والزندقة. وحتى صاحب الكتاب ابن عبد العظيم الأزموري استعمل في كتابه لفظ عين الفطر وليس تيط، وكذلك عدد كبير ممن دونوا لتراجم آل أمغار أو للمنطقة. (وهو اللفظ الذي لم يذكر نهائيا في مقالة الأستاذ)!

يورد ابن عبد العظيم قصة العامل الذي رفض التعيين بمنطقة "صنهاجة آزمور ورباط عين الفطر"، خوفا من التصادم مع آل أمغار "فتنفذ فيه دعوة الشيخ "أبا عبد الله، الذي دعا على كل من آذى ذريته،فرد عليه الملك: "قد علمت أن ذلك حق وعندي من كراماتهم أكثر من أن تحصى." (بهجة الناظرين- ص-36)

2- في آزمور اشتهر بيت آل أمغار، يقول التادلي في التشوف (ص 161) أنهم "بيت شرف وصلاح وفقه . "

لعبد العظيم الأزموري ثلاث مخطوطات :

- بهجة الناظرين وأنس العارفين

- كتاب الأخبار في كرامات الشرفاء بني أمغار

- تقييد في ذكر شرفاء المغرب وصلحائه .

يتضح من هذه المؤلفات -خاصة الأخير منها- أن الرجل من أكبر العارفين بأنساب القبائل المغربية، ومن ضمنها الشرفاء، ونحن نعرف مدى الدقة والحرص على المصداقية والموضوعية عند النسابة المغاربة سواء اتجاه القبائل العربية أو الأمازيغية، وما وقع بينهما من اختلاط وتمازج في كثير من مناطق المغرب ...

عن إسماعيل الجد الأول لآل أمغار بمنطقة آزمور،تذكر المصادر أنه يرجع بنسبه إلى عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب (انظر الكتاني - سلوة الأنفاس -ج 2 -ص218)، ويذكر اليعقوبي (ق3هج/9 م) ان أبناء عبد الله بن إدريس بن إدريس كانوا قد استقروا في السوس الأقصى (البلدان - ص 359) ويذكر البكري (ق 5هج/11م): " وبالسوس توفي عبد الله ابن إدريس وبها قبره . "ويذكر مدينة تامدلت التي أسسها عبد الله ابن إدريس ...ومن هنا يظهر أن آل أمغار أتوا من السوس الأقصى بعد أن فقدوا سلطانهم بفاس على يد موسى بن ابي العافية المكناسي، فتشتت الأدارسة في المغرب، ومنهم من ذهب إلى المشرق ...

وهذا ما دفع ابن عبد العظيم إلى القول والتأكيد على ما ذكره سابقوه من كون آل أمغار من أهل المغرب الأقصى (ويقصد هنا السوس الأقصى)، [تقييد ورقة 166].

ونقلا عن صاحب كتاب تنقيح الأخبار في كرامات الصالحين بنو أمغار،يذكر عبد العظيم الأزموري في بهجة الناظرين: "بأن آل أمغار شرفاء النسب يقال للشيخ أبي جعفر بن الشيخ اسماعيل أمغار القطب الصنهاجي الوطن،ويقال لأحفاده الصنهاجيون لأجل المصاهرة والمجاورة . "[بهجة الناظرين ورقة 33]

ويذكر ابن قنفد أن : "بيت بني أمغار بيت في المغرب في الصلاح لأنهم يتوارثونه كما يتوارث الناس المال . "[انس الفقير-ص21]

ويذكر لنا الأزموري أيضاأن لإسماعيل إخوة عملوا هم الآخرين على نشر التعاليم الدينية وسط القبائل الصنهاجية، وهما :أبو بكر ويعقوب . [وهذا عكس ما ذكره الأستاذ في مقالته من كونه كان وحيدا منفردا مجهولا هائما على وجهه من المشرق إلى المغرب !!!. .]

وقد خلف جعفر بن اسحاق أباه اسماعيل في هذه الزعامة الدينية في المنطقة، ويذكر ابن عبد العظيم أنه سكن بقرب الموضع الذي دفن فيه أبوه،والذي خلفه هو الآخر ابنه أبو عبد الله محمد ...

دون الدهاب بعيدا في سرد الأحداث التاريخية حول هذه العائلة الصالحة ببلاد بورغواطة،وما زخرت به المصادر العربية منذ القرن الأول للهجرة [من ق 3هج/9م حتى ق10هج/16م]،والتي يتضح من نصوصها تفنيد ما أورده الأستاذ في مقالته، كقوله مثلا :"فاسماعيل جد الأمغاريين طلب منه مرارا في منامه أن يتوجه من مقر إقامته بالمشرق إلى موقع تيط للإستيطان حتى ينتفع به وبذريته المغرب وجميع أهله . "وكذلك أن عبد الغظيم الأزموري وقع في تناقض بأن جعل لقب أمغار لإسماعيل قبل وصوله إلى المغرب !؟وأن اسماعيل من قبيلة صنهاجة وانتحل النسب الشريف !!!واصطنع أسطورة القدوم من المشرق ... وتفسيره أن هناك الكثير ممن انتحلوا النسب الشريف . . مع التعليق على أن هذا لا يعرفه إلا المتخصص في تاريخ المغرب !!!

-إننا بعد هذا العرض الوجيز جدا حول مدينة آزمور وحول آل أمغار وذكرهم في عدد كبير من المصادر المغربية من ق9م إلى ق16م. نود إبداء بعض الملاحظات :

1- أن منطقة آزمور تدخل ضمن منطقة تامسنا التي كانت تابعة للبورغواطيين الذين كانوا من ألد أعداء الأدارسة، الذين حاربوهم لإعتبارهم زنادقة وكفرة، حيث أن زعيمهم صالح بن طريف ادعىالنبوة وخلق أشكالا من البدعة والمروق، فكانت كلها ردة عن الإسلام الصحيح . . وهذا -دون شك- ما دفع إسماعيل بعد أن تفتت دولة الأدارسةأن يأتي للمنطقة،ولكن هذه المرة كداعية ديني،ومصلح للشوائب التي علقت بالإسلام وبمنطقة بورغواطة،خاصة وأنها على الطريق المؤدية إلى السوس الأقصى موطنهم الأصلي بعد تشتتهم من فاس،ويلخص هذا الكلام ابن حوقل عند كلامه عن بورغواطة قائلا:"وكان أهل البصرة [المغربية الإدريسية]ومدينة فاس يغزونهم في بعض الأوقات ويسالمونهم ويتاجرونهم ويجلبون لهم التجارات في الأخرى... وقد يصل إليهم أهل أغمات والسوس الأقصى بالتجارة وكذلك قوم من سجلماسة . "

إذن كانت المنطقة مزدهرة وغنية إقتصاديا،وملتقى لقوافل التجار وتبادل السلع والبضائع من مختلف مناطق المغرب ...كما يذكر هنا السوس الأقصى موطن آل أمغار بعد تشتت دولتهم .

فالمنطقة إذن لم تكن غريبة عن الأدارسة،وتذكرلنا المصادرأنه عندما وزع محمد بن إدريس المغرب على إخوته،كان من نصيب عيسى ابن إدريس إقليم شاسع "شمل سلا وشالة وآزمور وتامسنا . "

نستنتج مما سبق أن إسماعيل لم يأت من المشرق وليس بشخص مجهول الهوية عند قبائل المنطقة آنذاك... فكيف لغريب آتي من المشرق أن ينزل -وكأنه ينزل بمظلة- على منطقة دون أن يكون معروفا، وعلى معرفة بالمغرب والمغاربة وقبائله.

ودولته !؟وأن يجمع حوله كل قبائل المنطقة وأن يبجله ساداتها ويزوجونه من بناتهم؟

2- إن لقب أمغار الذي ذكر الأستاذ أن الأزموري وقع في تناقض عندما ألصقه لمشرقي واللقب أمازيغي محض؟!

نقول،إن إسماعيل من آل أمغار المستقرين بالسوس الأقصى و ذهب إلى الحج وعند عودته وقف عند عين الفطر –تيط–ولأسباب متعددة استقر هناك [أسباب دينية،إقتصادية، اجتماعية، شخصية]. ونحن نعرف جيدا أن لقب أمغار كان منتشرا بدرجة أكبر بمنطقة سوس وعلى السفوح الغربية والجنوبية الشرقية للأطلس الكبير، منه في مناطق أخرى من المغرب، وما دام جدهم عبد الله ابن إدريس استقر هناك وأسس مدينة تامدلت، واشتهر بالصلاح، إذن فلا غرابة أن تلقبه قبائل المنطقة بأمغار، خاصة وأنهم يعرفون أنه ينتمي لبيت شريف، وكانت له رياسة ودولة . فعمم هذا اللقب على كل أسرته من حفدة وأسباط ...

3- إن الشرفاء الأدارسة بعد أن انهارت دولتهم وتشتت أسرهم في كثير من مناطق المغرب، من شماله إلى جنوبه،ومن شرقه إلى غربه،اتجهوا نحو الصلاح وابتعدوا عن السياسة،لهذا ومنذ القرن 11م إلىالقرن19م نجد أغلب المتصوفة وشيوخ الزوايا وعلماء كبار،كلهم من الأسرة الإدريسية، ولا أدل على ذلك من أن قطب التصوف في المغرب هو مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم، ومنه تفرع عدد كبير من الصالحين والأولياء بمختلف البوادي والمدن المغربية، وتفرعت عن طريقته وأسرته العدد الكبير من الزوايا، لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب، كانت آخرها الزاوية الدرقاوية. [والقادرية والوزانية والكتانية...]

ولا غرابة كذلك أن نجد مولاي عبد الله أمغار يتفرع عنه هو الآخر عدد من شيوخ الزوايا في الجهة الجنوبية من المغرب، فابنه مولاي عبد الله المعروف بالصغير هو الذي أسس زاوية تامصلوحت بنواحي مراكش، وهو الذي أرسل

أحد أبنائه، أبو يعقوب لتأسيس زاوية بالسفح الجنوبي الغربي للأطلس الكبير بمنطقة تافيلالت لدى قبائل آيت مرغاد، حيث نعرف أن هناك أسرا إدريسية متفرعة عن هذا الشيخ مؤسس زاوية أسول [انظر حول هذه القضية كتاب الأستاذ العربي مزين le Tafilalt]

4- يذكر الأستاذ-قضية انتحال عدد من الدعاة للنسب الشريف وأنه أمر عادي بالنسبة للمتخصص في التاريخ المغربي الوسيط، وأن اسماعيل ابتدع شجرة نسب !

أقول، في التاريخ المغربي الوسيط، لم نلاحظ قط أن أحدا من رجال التصوف أو شيوخ زوايا ادعوا النسب الشريف، فلدينا أمثلة كثيرة من متصوفة وأولياء ورجال صلاح وشيوخ زوايا افتخروا بنسبهم القبلي،بل وأحيانا بجلوا وعظموا الشرفاء، أوان الشرفاء بدورهم بجلوهم وعظموهم بل ودخلوا أحيانا في طريقتهم وأصبحوا مريدين لهم،لأن هؤلاء المتصوفة والمصلحين الدينيين لاحاجة لهم في ادعاء النسب الشريف،وهم الضالعون في محاربة المنكر ومناهضة الدعاة المزيفين وهم العارفون بخبايا الأنساب وتفرعاتها، وهذا عكس الدعاة السياسيين الذين ظهروا في كل الفترات التاريخية المغربية، والذين ركبوا مطية النسب الشريف للوصول إلى السلطنة والسلطة،لكن ما لبثوا أن سقطوا بمجرد نهوضهم وافتضح أمرهم وكان مآلهم الفشل الذريع، ولم تصدقهم في أحيان قليلة إلا الغوغاء وجهلة عامة الناس ...

لذا لا نجد داعيا لمصلح ديني ومتصوف زاهد في الدنيا أن يدعي شيئا ليس له ولا هو منه كالنسب الشريف،فأي حاجة له به، فالناس لم تكن تعترف به إلا من خلال كراماته ومناقبه، لذا فكثير من شيوخ الزوايا وصلحاء وأولياء ظلوا متشبثين بهويتهم المحلية وتقاليدهم وأعرافهم القبلية، بادلين كل الجهد من أجل التوفيق بينها وبين الشريعة الإسلامية، وكل ما تميزوا به هو كراماتهم

ومكاشفاتهم ورؤاهم، وما عرفوا به عند العامة من خرق للمألوف وكشف عن المحجوب .

5- إن المغاربة ليسوا سدجا حتى تنطلي عليهم "حيلة إسماعيل" ودعواه، وأن يبجلوا ويعظموا رجلا غير معروف ومشكوك في نسبه، وهم المتضلعين في الأنساب وفروعها -حسب ما تقتضيه التجمعات القبلية- فلا يمكن بتاتا أن يستغفلهم لسنوات ولأجيال،فهذا غير منطقي نهائيا،لأن حبل الدعاة قصير، ولدينا شواهد متعددة في التاريخ ...

تبين لنا الرواية المصاهرة التي تمت مع قبيلة صنهاجة ومع أحد ساداتها، وكيف أنهم بجلوا بيته، كيف يتم هذا وهم يعرفون انه منهم؟!ويوجد في منطقة بورغواطية عرفت بالشدة والقسوة والإنغلاق على الذات،والصراعات السياسية -وهذا ما جعل ابن اسماعيل ابو جعفر إسحاق أن يصطحب معه أمه إلى الجنوب عندما اشتد الصراع داخل بورغواطة، وعاد عندما قضى عليها المرابطون-

كما أنه لم يدع قط السلطنة ولا الرياسة ولا المشيخة أو التقرب حتى من أصحابها،كل ما فعلوه وعرفوا به هو التصوف وتعليم الناس تعاليم دينهم وشريعتهم، وممارسة الورع والزهد ...إذن لاداعي لإنتحال النسب! وهذا ما لاحظه معاصروه وسجلوه في حق البيت الأمغاري المعروف بالصلاح،ولم يتقرب قط لأية سلطة كانت،بل السلطة هي التي حاولت التقرب منهم بظهائر التوقير والإحترام .

[وقد سبق أن أوردنا نصا يبين بوضوح رفض العمال التعيين في المنطقة خوفا من بركة آل أمغار ودعوتهم عليهم إن هم أصابوا الرعية بمكروه .]

6- ابن عبد العظيم الأزموري، يظهر من إسمه أنه ابن المدينة،مدينة أزمور، مدينة الصلاح بأوليائها من آل أمغار،فكيف بهذا الإخباري المتضلع في الأنساب،وله

ثلاث مؤلفات فيها، والعارف بأخبار المغرب،أن يرتكب مثل هذا الخطأ،وأن تفوته قضية الإنتحال وهو ابن البلد والعارف بإخبارييها وأخبارها،والذين أخد عنهم في كتبه. .

ومقارنة بسيطة بين ما كتبه الأزموري والمصادر الأخرى سواء أكانت لرحالة أوجغرافيين أو مؤرخين، تبين أن الرجل إلتزم الدقة والصدق في روايته، إلا ما نجده في كل الروايات التاريخية المغربية الكلاسيكية، التي طبعت أحيانا أخبارها بأشياء خرافية خاصة في ميدان كرامات الأولياء والصالحين ومناقبهم...

إذن كيف نفسر الإجماع التام لكل الإخباريين والمتصوفة وشيوخ الزوايا ورجال المخزن ومنذ القرن 11م، على شرف آل أمغار،من السوس الأقصى إلى موضع عين الفطر -تيط- بأزمور إلى حوز مراكش،إلى السفح الجنوبي الغربي للأطلس الكبير؟

هذه بعض الملاحظات التي سجلتها -على عجل- لما أثارني في مقال الأستاذ المرحوم من ادعاءات باطلة في حق منطقة، وفي حق بعض رجالاتها الصالحين الذين أصبحت سلالتهم وأسرتهم من أقطاب التصوف والعلم في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

النقل ووسائله: مقاربة تاريخية

ذ. أحمد علمي
كلية الآداب – مكناس

يقول أحد الباحثين: ((إن نقل أجزاء مادة من نقطة إلى نقطة أخرى على وجه الأرض، هذا كل نشاط الإنسان))[1]. ويقول بيير شونو عن النقل والمواصلات: ((إنها وراء كل شيء))[2] .

ويعرف النقل أنه مجموعة الطرق والوسائل والوسائط والتكنولوجيا والإجراءات التنظيمية والاقتصادية التي تهدف إلى نقل الإنسان وإنتاجه من مكان إلى آخر[3]. وإن مستوى تلك الوسائل المستعملة في النقل في مجتمع من المجتمعات تحدد درجة تحكمه في مجاله الجغرافي وفي حجم الإنتاج المحدد للتسويق، كما أن كثافة و تنوع وسائل النقل علامة على اقتصاد متطور. فالمواصلات المكثفة في بلد ما تعتبر مؤشرا على وجود حضارة مادية متطورة، وعلى العكس من ذلك، فإن نقص وسائل النقل وسوء تنظيمها في مجتمع من المجتمعات يعتبر مظهرا لتخلف اقتصاد ذلك المجتمع، وأيضا سببا في تخلفه [4] .

---

[1] Ritter (yean) : Géographie des transports ; P.U.F. Que sois-je ?N 1427 ;1971 ;p5 .

[2] Channu (P): La civilisation de l´Europe des lumières. Flammarion; Paris; 1982; p: 283 .

[3] أحمد حبيب رسول : دراسات في جغرافية النقل، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص:22.

[4] Glozier (René) : Géographie de la civilisation ; Paris ; M.T.H. Génin ; 1969 ; p :16 .

وإذا كان النقل نشاطا إنسانيا يوصف عادة بكونه غيز منتج مباشرة، أي أنه ليس كأي صناعة من الصناعات ينتج أشياء، فإنه أساسي ولا غنى عنه في كل عملية إنتاجية، إذ لا بد من نقل وسائل الإنتاج من مواد أولية وآلات وعمال إلى أماكن الإنتاج، ثم توزيع المنتجات على الأسواق القريبة البعيدة. كما أن الدول باعتبارها مؤسسات سياسية يقع على عاتقها تسيير شؤون الناس، لا يمكن أن تقوم بدورها إلا بتوفر وسائل نقل فعالة لحمل البضائع وإيصال أوامرها ونواهيها .

إن شبكة المواصلات هي قبل كل شيء صورة لمستوى التنظيم السياسي للدولة والتحكم في حدودها، والنقل وسيلة أساسية تعكس مدى تمكن الإنسان من تحقيق الأهداف، سواء تعلقت تلك الأهداف بمؤسسات السلطة أو الاقتصاد أو الدين، كما أن النقل يخلق التوازن بين مختلف مناحي الأنشطة الإنسانية [5].

برجوعنا إلى تاريخ تطور وسائل النقل نقف على مرجعيتين أساسيتين، الأولى هي العجلة، وكانت أهم اختراع في الألف الرابعة قبل الميلاد بالنسبة للنقل البري . ثم الشراع بالنسبة للنقل البحري. وهكذا بدأ الإنسان الذي يعتمد على قوته البدنية يتأكد من نجاعة الوسائل الميكانيكية والطبيعية في نقله ونقل بضائعه .

ومرت مئات السنين دون أن يحدث تطور يذكر في وسائل النقل، وظل اىشراع هو أساس تحرك المراكب البحرية بالرغم من التطور الذي عرفته صناعة تلك المراكب.

ويرى بعض الباحثين أن سبب نمو الاقتصاد الأمريكي هو مد الخطوط الحديدية عبر القارة، أنظر عبد الله العروي : مفهوم التاريخ، جزآن، الطبعة 1، بيروت 1992، ج1، ص141.

[5] Ritther (J): op.cit ; p :6

وبالنسبة للنقل البري يمكن القول أن دور العجلة قد تراجع بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وتوقف العناية بالطرق، حتى أن النقل بالدواب أصبح هو السائد بدل النقل بالعربات. وكان لابد من انتظار أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حتى تبدأ التحولات الهامة في وسائل النقل، تلك التحولات التي ارتبطت بالثورة الصناعية في انجلترا ثم في باقي دول أوروبا. كما ارتبطت بتطور التجارة التي جعلت المنتجين والمستهلكين في أمس الحاجة إلى وسائل نقل متطورة برا و بحرا .

تعتبر الطريق عنصرا أساسيا في حركة النقل، فلم يكن بالإمكان أن يتم أي تنقل للإنسان أو للخيرات إلا عبر الطرق البرية ثم النهرية والبحرية. إن الطريق البري بمعناه الواسع هو أول أساس للمجال المؤنس، إنها تمثل العنصر الأساس في تجهيز المجال لحياة المجتمعات، فهي وسلة من وسائل الحكم وأداة من أدوات التبادل، وهي من أقدم قنوات المواصلات بالنسبة للإنسان وأكثرها مرونة، حيث تهم التنقلات الفردية والجماعية والنقل المكثف، وهي خاضعة لكل أنواع حركة النقل والتنقل عبر الحيوانات ثم عبر العربات ووسائل النقل المتطورة التي نراها الآن[6]. وكان تطور الطرق مرافقا لمظاهر الحضارة المعاصرة.

والطريق ليست خطا للنقل والتنقل، بل إنه عنصر ذو حياة متشعبة، فمع حركة الإنسان والبضائع التي تتحقق عبر الطريق غالبا ما ترتبط الطريق بشبكة من الطرق, الشيء الذي يجعلها تقوم بدور شامل[7]، يتم في إطاره الدور الاقتصادي والفكري والإنساني .

---

[6] CLOZIER (R) : OP.CIT , P7 .
[7] Ibid .

إن الطريق غير المعبد أو المسالك les pistes هو من أقدم خطوط المرور، ظهر بتأثير أقدام الإنسان وحوافر الدواب، فالمعروف أن الحيوانات عموما تتبع أسهل الطرق للوصول إلى موارد الماء. ولاشك أن حركة الترحال ونصف الترحال التي اختلط فيها الإنسان بالحيوان كانت هي أساس رسم أولي للمعابر والطرق.

وتتأكد أهمية الطريق من خلال النشاط التجاري والفكري الذي يمر عبرها، ثم إن تلك النشاطات تجارية أو فكرية تنعش بدورها حيوية الطريق إلى درجة أن أسماء بعض الطرق تدل على مراحل تطورها مثل طريق الحرير الذي يدل اسمها على النشاط الذي عرفته فيما يخص تجارة الحرير عبر التاريخ، وطرق الذهب في أمريكا الشمالية وفي افريقيا، وفي المغرب سميت بعض الطرق بالطرق السلطانية لكثرة عبور السلاطين لها، وكذلك طريق التمر التي كانت تنطلق من تافيلالت نحو الشمال.

ولاشك أن شق الطرق والعناية بها ظهر أول الأمر عند الشعوب ذات الحضارات الأولى، فنظم الحكم المستقرة المركزية التي قامت في وادي النيل وبلاد ما بين النهرين عملت على شق الطرق لتؤكد قوة حكمها ونشر قوانينها، ويظهر أن أول طريق في التاريخ أنشئ عام 3500 ق م في وادي النيل[8] . وفي القرن السادس قبل الميلاد توسعت الإمبراطورية الفارسية شرقا وغربا، وأنشأ الفرس شبكة من الطرق امتدت من مصر إلى آسيا الصغرى وإلى نهر السند، وأهم تلك الطرق الطريق الملكي التي كانت تربط مدينة سوسة

[8] أحمد حبيب رسول : مرجع سابق، ص17.

عاصمة فارس بموانئ بحر إيجة[9]. وبلغ طول هذا الطريق نحو 2500كلم، وكانت المراسلات الرسمية تستغرق تسعة أيام لعبوره[10].

ويعتبر الرومان أول من أنشأ الطرق المرصوفة ذات الأساسات القوية من كسر الحجارة، إذ أنشئت شبكة انطلقت من روما في اتجاهات مختلفة وذلك حوالي 312 م[11]، ووصل طول الطرق الرومانية في القرن الثاني للميلاد حوالي 120 ألف كلم [12].

إن كلمة voie التي تقابلها طريق بالعربية ترجع إلى الأصل اللاتيني via ومعناهـــا الطريق التي تعتني بها الدولة لتحقيق أغراضها الإدارية والاستراتيجية. ثم ظهرت كلمة Rupta التي تعني الطريق الهامة . وفي فترة ازدهار الدولة الرومانية مع نهاية القرن الثاني ظهر تعبير strat وهي طرق لها ترصيف خاص، ودورها الأساس نهاية التبادل التجاري، ومنها اشتقت كلمة Estrée وStasse الألمانية وStreet الإنجليزية. ويلاحظ أن تطور التسميات واكب تطور دور الطرق وأهميتها [13] .

لقد تراجعت الطرق بشكل كبير بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، واستمر ذلك طيلة العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر عندما بدأ الاهتمام من جديد بالعربة التي تجرها الخيول، استعملت لنقل السلع ثم لنقل الأفراد. لذلك ظهرت العناية بالطرق ثانية منذ منتصف القرن الثامن عشر كما ذكرنا، ويمكننا أن نطرح التساؤل التالي :

---

9 نفسه .

10 نفسه .

11 نفسه .

12 نفسه، ص18.

13 Glozier (R) : op-cit . p73.

هل كان تدهور الطرق من بين أسباب تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بأوروبا خلال العصور الوسطى، أم أن تدهور تلك الأوضاع أثر على واقع الطرق وجعلها تتراجع بشكل كبير؟

لقد بذلت خلال القرن الثامن عشر بأوروبا جهود كبرى لتجهيز الطرق، لكن الوصول إلى إقامة طرق تقاوم الشتاء والثلوج والتشقق لم يكن قد حان بعد[14]. ويرجع الفضل إلى البريطانيـــين John Loudon (1756-1836) و Tomas Telford (1757-1834) في تطوير الطرق في بريطانيا باستعمال تقنيات جديدة جعلت الطريق أكثر مقاومة للتقلبات المناخية ولتقل العجلات، وعممت تلك التقنيات في باقي الدول الأوروبية[15]. فالقرن الثامن عشر في أوروبا هو قرن الطريق المبلطة والقنطرة والعربة ذات العجلات المؤطرة، أما القرن التاسع فهو قرن القطار والباخرة [16] .

كانت فرنسا أول دولة أوروبية عملت على إنشاء الطرق وصيانتها، ففي عام 1716 أنشئت أول مؤسسة حكومية للإشراف على تشييد الطرق وصيانتها، وفتحت أول مدرسة لتدريس المهندسين المختصين (مدرسة الطرق والجسور 1747) ولا زالت هذه المدرسة قائمة إلى الآن. وعملت الملكية الفرنسية على إقامة مجموعة من الطرق تنطلق من باريس، وكان وراء شقها المشاغل الإدارية للنظام الملكي الفرنسي [17] .

---

[14] Channu : op-cit . p283.

[15] Ibid.

[16] Ibid . p :183-184.

[17] Glozier ; op-cit . p : 73.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أنشئ أول طرق مرصوف عام 1794 بين لانكستير وفيلادلفيا، وفي عام 1802 شرعت الحكومة الفيدرالية في بناء شبكة من الطرق البرية [18] .

واستمرت عملية شق الطرق في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، إلا أن ذلك لم يكن بشكل مرض سواء بالنسبة للراجلين أو الراكبين على الدواب أو مستعملي العجلات [19]، بالرغم من أن فرنسا كانت قد أقامت 330000 كلم من الطرق اتجهت جلها نحو سويسرا وألمانيا وشمال إيطاليا، إلا أن الصعوبة كانت تتمثل في صيانة تلك الطرق مثل إزالة الأوحال في الفصول الممطرة، مع ذلك اعتبرت الطرق الفرنسية أحسن الطرق في العالم بما في ذلك الطرق البريطانية التي بلغ طولها سنة 1850 خمسين ألف كلم [20] .

ونظمت في المدن الأوروبية عمليات النقل العمومي، ففي سنة 1827 أصبحت وسائل النقل العمومي في باريس في متناول كل طبقات المجتمع، وفي ميلانو تكونت أول شركة للنقل العمومي سنة 1841 [21] .

وفي سنة 1880 ظهر الترامواي البخاري ثم الترامواي الكهربائي سنة 1887، وظهرت أول حافلة Autobus في فرنسا سنة 1907، ولم تكن لتلك التحولات أي انعكاسات سلبية على العاملين في العربات التي تجرها الخيول، ففي إنجلترا مثلا كان chaplin سنة 1836 يملك 300عربة

---

[18] أحمد حبيب، مرجع سابق، ص:19.

[19] Sehnerb (R) : Le XIXème siècle ; 1815-1914 ; l'apogée de l'expansion européenne ; Vé. Ed P.U.F 1968 ; p :27.

[20] Ibid ; pp :27-28.

[21] Clozier ; p :55.

و 150 ألف حصان، تحول إلى نقال للبضائع بالقـــطار وأصبـــح على رأس London and south westhern mailing [22].

وينبغي التأكيد أن النقل البري في أوروبا ظل إلى حدود القرن التاسع عشر يعرف عدة صعوبات، حيث استمرت العربات هي المستعملة في نقل البضائع والأشخاص[23]. وكانت الطرق تربط بصفة عامة بين المدن ولا تصل إلى مختلف المناطق[24]. واستمرت المساحلة والنقل النهري أهم وسائل النقل في أوروبا. ولم يعرف النقل ثورة شاملة إلا بعد انتشار السكة الحديدية وإقامة الخطوط العابرة للقارات في أمريكا وآسيا، وكان لذلك انعكاس كبير على اقتصاد الدول، حيث بدأت بريطانيا التي عرفت بسيطرتها على البحار تتراجع أمام الدول القارية الكبرى خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

من خلال استعراضنا للتطورات التي عرفتها وسائل النقل يمكننا أن نبدي الملاحظات التالية:

1) إن وسائل النقل لم تعرف تطورا جذريا إلا خلال القرن التاسع عشر، أي بعد استغلال قوة البخار في النقل البحري وجر العربات على السكة الحديدية.

---

[22] يذكر الصفار الذي زار باريس سنة 1845 أنه نظر لكبر المدينة واتساع أحيائها :. ((تجد عندهم كراريص طوال تحمل عليها من الناس مكتوب عليها هذه تذهب إلى الحومة الفلانية، فيركبها كل من يريد الذهاب لتلك الحومة، ولوكان من الخدمة ونحوهم، وينزل بعضها ويحمل آخرين في أثناء الطريق، فهدير الأكراش والكراريص بما لا يفتر ليلا ونهارا، أنظر سوزان ميلار : رحلة الصفار إلى فرنسا 1945-1946، دراسة وتحقيق، عرب الدراسة وشارك في التحقيق خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب الرباط، 1995، ص144.

[23] Ibid ; p29.

[24] Schenrb ; op-cit ; p33.

2) إن التطور النوعي الذي عرفه النقل خلال القرن التاسع عشر تم في إطار تطورات اقتصادية كبرى عرفتها أوروبا تمثلت في التجارة البعيدة المدى وتراكم رأسمال هائل.

3) إن إقامة أي شبكة للنقل يتطلب جهدا كبيرا من حيث الاستثمار، وهذا لم يكن في استطاعة إلا الدول التي توفر لها رأس مال تجاري مثل دول غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر. أما الدول التي لم تتوفر على موارد رأسمال فلم تستطع إقامة أسس شبكة للمواصلات، ويدخل في خانة تلك الدول مغرب القرن التاسع عشر.

لم يعرف مغرب القرن التاسع عشر، أي تطور في إنتاج الخيرات، مما أبعد كل تفكير في شق الطرق وإقامة القناطر واستعمال الوسائل الحديثة للنقل. وبالرغم من تدفق السلع الأوروبية على المغرب منذ النصف الثاني من القرن 19، فإن وسائل النقل لم تتغير مما أحدث خللا في عملية العرض والطلب وجعل أسعار النقل القوافلي تعرف ارتفاعا هائلا أعاق الحرية التجارية، فبدأت القوى الأوروبية تقترح على المخزن الاهتمام بالطرق والقناطر وإدخال وسائل النقل الحديثة لتسيير حركة نقل البضائع والأشخاص، إلا أن ((أصحاب الحل والعقد)) رفضوا إدخال تلك الوسائل مثل ((بابور البر)) أي القطار [25] .

وتمثل أكبر رفض لوسائل النقل الحديثة في تدمير السكة الحديدية التي أقامتها شركة فرنسية سنة 1907 بميناء الدار البيضاء ومن المثير للتساؤل أن تكون الانطلاقة العنيفة للمواجهات بين المغاربة والأوروبيين ناتجة عن إقامة تلك السكة، وهي المواجهات التي تلتها عملية احتلال منطقة الشاوية، فهل كان

---

[25] خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت العربات تقطع المسافة بين باريس وليون في ستة أيام، وتستغرق الرحلة 12 يوما بين باريس وسترازبورك . أنظر :Schnerb ; op-cit ; p28.

المغاربة يرفضون وسائل النقل الحديثة إلى درجة جعلتهم يغتالون الأوروبيين الذين كانوا يعملون بالسكة بميناء الدار البيضاء؟ وهل كان المغاربة يرون في وسائل نقلهم الموروثة وسائل كافية لنقلهم ونقل بضائعهم؟

إن رفض المغاربة لوسائل النقل الأوروبية يمثل جزءا من رفض شبه تام لكل ما هو أوروبي، مما قد يوحي للدارس أن ما كان يتوفر عليه المغاربة من وسائل اعتبر من لدنهم كافيا وملائما لظروف عيشهم، فهل كانت وسائل النقل والتنقل كذلك ؟ ألم يكن الخلل الذي عرفته حركة النقل داخل المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ناتجا عن تدفق السلع الأوروبية على البلاد؟

والحاصل أن وسائل النقل الموروثة لدى المغاربة هي التي استمرت إلى حدود عقد الحماية، ولم يكن المخزن يدخل ضمن اهتماماته منذ العصور الوسطى تجهيز الطرق والعناية بها إلا في مناسبات معينة.

الزعامات المخزنية بمنطقة تافيلالت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر: شخصية الخليفة المولى الرشيد السلطان

ذ. محمد لمراني العلوي
كلية الآداب – مكناس

إن الحديث عن تاريخ الزعامات المخزنية بمنطقة تافيلالت –خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي– لا يمكننا دراسته بمعزل عن تاريخ بلاد المغرب الأقصى نظرا لتداخل الكثير من العوامل فيما بينها والمتميزة بحمولة سياسية وعسكرية تمثلت في الهجوم الإمبريالي الاستعماري المتعدد الأهداف والوسائل وذلك قصد السيطرة الشاملة –اقتصاديا وسياسيا وعسكريا– على بلاد المغرب اعتمادا على التوافقات الاستعمارية بين مختلف القوى الإمبريالية.

وإذا كانت فترة حكم السلطان المولى الحسن الأول (1873 – 1894) هي المرحلة التي اتسمت بتأكيد الحضور القوي للسلطة المركزية المخزنية على المستويين الداخلي والخارجي وذلك من خلال الحركات التي كان يقوم بها السلطان لمختلف عمالات وأقاليم المملكة – وهي أيضا المرحلة التي اعتبرت فترة حذر وصمود في تاريخ بلاد المغرب الأقصى فإن المرحلة التي أعقبتها كانت بداية لتراجع إن لم نقل انهيار هذا الصمود، نظرا للضغط الاستعماري المتنوع والذي يريد حسم الموقف عسكريا وذلك باحتلال بلاد المغرب الأقصى.

لكن هناك ثمة أسئلة تفرض نفسها نظرا لارتباط وتداخل الكثير من العوامل فيما بينها خاصة ما يتعلق بالجوانب الجغرافية والبشرية والسياسية بما في ذلك البنية الإدارية المخزنية بتافيلالت الممثلة بشخصية قوية ومهابة الجانب تجسدت بخليفة السلطان على بلاد تافيلالت وهو الخليفة مولاي الرشيد الذي راكم الكثير من التجارب والتراكمات السياسية والتي يمكننا اختزالها في عنوان عريض وكبير وهو معاصرته لخمسة من السلاطين العلويين إذا فمن هو هذا الزعيم المخزني بتافيلالت والحامل للقب خليفة السلطان على بلاد تافيلالت؟

يعتبر الخليفة السلطاني المولى الرشيد أحد أبناء السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859– 1873) وهو بذلك أخ السلطان المولى الحسن الأول (1873 – 1894) الذي طلب منه البقاء كخليفة سلطاني له سنة 1873م وذلك بعد وفاة السلطان أبيهما محمد الرابع (1859– 1873) كما تشير إلى ذلك الوثائق المخزنية بتافيلالت خاصة مراسلة السلطان المولى الحسن الأول (1873 – 1894) الموجهة إلى الخليفة نفسه أي المولى الرشيد بمنطقة تافيلالت سنة 1290هـ – 1873 وهي سنة بيعة المولى الحسن (1873 – 1894) كسلطان للبلاد.

يقول نص الوثيقة:

"وعقدت على الوجه المعتبر (أي البيعة) لم يتخلف عنها من غاب ولا من حضر من كل من بلغه هذا النبأ ووصله الخبر، ولازالت تتوارد من جميع الجهات وعم الأمن والهناء والعافية بهذه النواحي جميع البلدان والطرقات فالناس فيها رائح وغاد بسلام لم يتطاول أحد على أحد من فضل الله حتى بالكلام ... ولا يخفاك ما ورد في الحديث الشريف: "إن

المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فكيف للأخ بأخيه... فإن وإياكم ذات واحدة، وفرعان من شجرة متحدة، فليكن أخونا عند الظن به... جعلنا الله وإياكم ممن استسلم للقضاء، وقابل الأمر المحتوم بالإذعان والرضى... وما فاتكم من نعمة وصلت إلينا ولا عداكم فضل حل لدينا وقد كان رحمه الله وجه لكم البهائم لخدمة الخريف، ولازالت في الطريق صحبة وصيفنا مبارك الشامي ومن معه، فالعمل على ما كتب لكم في ذلك ...

هذا وقد كان مولانا المقدس بالله انفذ لكم كتبه الشريفة في قضية الشرفاء مع أولاد يوسف صحبة كاتبة الطالب إبراهيم النظيفي والطالب محمد بن القائد حمان الضرير، فاخترمته المنية قبل وصولها إليكم، فلازال العمل عليها لأننا لا نؤخر ما قدمه ولا نحل ما أبرمه والله المسؤول أن يسلك بنا وبكم أقوم طريق، إنه سبحانه ولي التوفيق والسلام في فاتح شعبان 1290هـ ... فإنكم لازلتم مكلفين بما كنتم مكلفين به في حياته قدسه الله فليضبطها أخونا رعاه الله في جميع الأمور وليكن عند الظن في الورود والصدور...".

إن الحمولة المعرفية لهذه المراسلة المخزنية للخليفة السلطاني بتافيلالت -رأي الخليفة المولى الرشيد- تبين لنا إلى حد كبير مدى الدور الوازن والفاعل لهذه الشخصية السياسية المخزنية داخل المجال الجغرافي الفلالي بصفة شمولية نظرا لاعتبارات عديدة يمكننا، اختزالها في الجوانب الأساسية الآتية:

أولا: كون الخليفة السلطاني المولى الرشيد من الإخوة الأشقاء للسلطان المولى الحسن الأول (1873 – 1894)، والذين تميزوا بتقلدهم لمناصب الخلافة في مجالات جغرافية عديدة وبدرجات متفاوتة.

يقول العلامة ابن زيدان: "عجيب الإتفاق الذي لم يقع لغيرهم من أبناء ملوكنا العلويين، حيث لم يبق واحد من الأشقاء وقد ولي الخلافة".

ثانيا: التجربة السياسية الكبيرة التي راكمها الخليفة السلطاني بتافيلالت بحكم معاصرته لأبيه السلطان سدي محمد بن عبد الرحمان (1859 – 1873) وأخيه السلطان المولى الحسن الأول (1873 – 1894) وبعدهما السلاطين مولاي عبد العزيز (1894 – 1908) ومولاي عبد الحفيظ (1908 – 1912) وأيضا السنوات الأولى من حكم المولى يوسف (1912 – 1927). إذا فهذه التجربة السياسية بزخمها المخزني أهلته للتمكن من أحوال مجاله الجغرافي الفلالي ويصبح سيدا عليه بصفة شمولية وبدون منازع.

ثالثا: أهمية البيعة الواردة من هذا المجال نظرا للاعتبارات السياسية والروحية والعائلية وأيضا من زعيم وقائد محلي من عيار الخليفة المولي الرشيد.

رابعا: احتضان بلاد تافيلالت للكثير من الأمراء أبناء السلاطين سدي محمد بن عبد الله (1757 – 1790) والمولي سليمان (1792 – 1822) وغيرهم من الذين فضلوا أو أجبروا على الاستقرار بمختلف القصور المخزنية الفلالية.

خامسا: التقاء حدود المجال الجغرافي لبلاد تافيلالت مع الحدود الاستعمارية بالجزائر والتي شكلت جبهة ضغط مستمر على جميع الأصعدة خاصة ما تعلق بمحاولات الاستتراف الاقتصادي للمجال الفلالي.

سادسا: حدة المشاكل الاجتماعية المتراكمة ببلاد تافيلالت كما تدل على ذلك المراسلات المخزنية.

هذه الأسباب مجتمعة ومتكاملة تبين لنا أهمية وثقل هذا القائد المخزني الخليفة مولاي الرشيد بل والأكثر من ذلك فقد وجدت السلطة المركزية المخزنية الممثلة بالسلطان المولى الحسن الأول (1873 - 1894) مرغمة على التعاطي بواقعية سياسية وشمولية في نفس الوقت مع خصوصيات المجال الفلالي الذي يتحكم في خيوطه الخليفة المولي الرشيد كما تؤكد على ذلك مختلف الوقائع التي سيعرفها مجال بلاد تافيلالت خلال العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويمكننا إجمال أهم الأحداث والوقائع التي عرفتها فترة تولية الخليفة السلطاني مولاي الرشيد بتافيلالت على الشكل الآتي:

1- الأحداث الاجتماعية الداخلية المرتبطة بمجال بلاد تافيلالت والمرتبطة بمختلف التحالفات المحلية بصفة شمولية وهي على نوعين:

أ – الأحداث الاجتماعية الممثلة بالتراعات بين بعض الأطراف المكونة للتحالف سواءاً تعلق بالمشيخات والاتحاديات أو بالقصور المكونة أصلا للمشيخة.

ب – الأحداث الاجتماعية الطارئة بين المشيخات والاتحاديات المنتمية لتحالفات مختلفة.

2 - الأحداث المرتبطة بالحدود مع الاستعمار الفرنسي ببلاد الجزائر.

أولا: هناك حدث الصراع والفتنة بين قصري أخنوس الكبير المجاور لقصر أخنوس الصغير المتصارع معه والذي اختزل الكثير من الأحداث الاجتماعية سواء بين مختلف القصور أو المشيخات وكذلك التحالفات الكبرى.

وهي على الشكل الآتي:

1- الأحداث والتراعات الناشبة بين مختلف المشيخات أو القصور المكونة للاتحادية أو المشيخة ذاتها.

ومن هذه الأحداث المؤثرة التي فرضت نفسها على الساحة هو أحداث الصراع بين الأشراف العلويين من أهل سوى بلغيث وأهل محرز أي بين أهل قصر أخنوس الكبير وأهل قصر أخنوس الصغير المكونيين الرئيسيين لمشيخة قصور وادي اديفلى والتي جاءت بشأنها مراسلة مخزنية -أي هذه الأحداث- حاولت إصلاح ذات البين وتأدية فدية الأشخاص الذين سقطوا إثر هذه الأحداث ومن ضمن ما ورد في هذه المراسلة الجوابية للسلطان مولاي الحسن الأول والمؤرخة ب 11 جمادى الأولى عام 1311هـ: "ولكن ما أردنا في هذه الوجهة المباركة المذكورة هو الزيارة وإصلاح القبائل العظام ورد المظالم والحقوق، وإن كانت هذه الجزئية من جملتها...".

وتضييق المراسلة:

"الشرفاء أولاد مولاي محرز وصل كتابكم بأنكم ممتثلون ما أمرتم به من المسامحة مع أولاد سدي بلغيث... وفيها الخير لكم ولهم حالا ومثالا... إلا أنهم (أي أولاد سدي بلغيث) شيعوا عليكم كلاما لا

يستطاع. وهو أن الدية التي أعطوها لكم عوضناهما لهم، فإنما هو من زعامتكم قولا لا فعلا... وعدو لكم عنها (المسامحة المبنية على أساس الصلح) لا يؤدي بكم وبهم إلا لما لا يرضاه الله ورسوله ولا نرضاه حتى نتمنوا المسامحة والسكينة بعد فواتها، ومعلوم أن الأحقاد لا تفضى بالنفوس إلا لشتاتها ... وعليه فلتنفذوا ما بدا لكم، على أنكم لا تجهلون سطوة الله ... وحيث لم تعرفوا مع ذلك ما أريد بكم من السلامة فها نحن الآن نبذناكم وطرحنا أمركم وألقينا حبلكم على غار بكم".

ومهما يكن من الأمر، فإن الوثائق المحلية الفلالية -إضافة إلى الرواية الشفوية المنسجمة والمتوافقة من الكثير من جزئيات هذه الأحداث- تشير إلى أن الشريف مولاي اليزيد القاطن بقصر أخنوس الصغير والزعيم الأوحد والأول لهذا القصر والمواضع عن أولاد مولاي محرز الذين قتل بعض كبرائهم وخيارهم قد عمل على إيجاد حل لهذه النازلة مع كل من الخليفة السلطاني مولاي الرشيد والسلطان المولي الحسن الأول نفسه إثر زيارته وحركته لتافيلالت وبالضبط إثر (انتقاله لضريح جده المولى علي الشريف يومه 24 جمادى سنة 1311هـ.

وتشير الرواية الشفوية المعززة بالوثائق المحلية إلى أن الشريف مولاي اليزيد قد شرح للسلطان حيثيات النازلة موضحا له عدم توصلهم بأموال تعويض الدية رغم امتثالهم للأوامر المخزنية المعتمدة على مرجعية مبدإ الصلح. تشير كذلك الرواية المتواترة بتافيلالت إلى أن السلطان مولاي الحسن قد قال لمولاي اليزيد كيف تريدون تدخل المخزن الذي

لا تحترمون أوامره. فأثبت له مولاي اليزيد الخنوسي عكس ذلك وهو ما أكده الخليفة مولاي الرشيد [1].

وبعد تأكد السلطان من هذه المعطيات عن طريق الخليفة المولى الرشيد أمره بصرف تعويضات الدية وفض التراع في أجل معلوم لا يتعدى ثلاثة أيام مع إخباره بالقصر المخزني مقر المحلة السلطانية.

ومهما يكن في الأمر فإن الخليفة السلطاني المولى الرشيد سيجد نفسه مضطرا لفض التراع بين قصري أخنوس، والذي أخذ أبعادا أخرى في إطار التنافس المجالي بين حلفي آيت عطا وآيت يفلمان انطلاقا من القصور والمشيخات الداخلة في دائرة الأحلاف. ذلك أن زعامات قصر أخنوس الكبير – الذين أجبروا قصر أخنوس الصغير على التحالف مع أهل قصر الحاج هارون – ألزموا أهل قصر قصبة سدي ملوك على مساندتهم، وهو الشيء الذي سيؤثر سلبيا على مكونات اتحادية ومشيخة وادي إيفلي.

إضافة إلى ذلك، فإن هذه الزعامات من أولاد سدي بلغيث المتحدثين بل والمتحكمين في قصر أخنوس الكبير سيخالفون مع بعض القصور الفلالية المنتمية لحلف آيت يفلمان، بل وسيدخلون بعض جماعتهم المسلحة لداخل فصر أخنوس الكبير -بزعامة الشريف المسمى مولاي اعلي القن- الشيء الذي سيغضب السلطة المخزنية -الساعية

---

1 – تخبرنا الوثائق الفلالية بأن الأطراف المتنازعة قد هربت إلى قصور أخنوس مخافة انتقام المخزن منهم – نظرا لعدم استجابتهم لمبدإ الصلح – خاصة بعد حلول السلطان المولى الحسن الأول بتافيلالت وإقامته بالضريح باستثناء الشريف المولى اليزيد الذي عمل على توضيح ملابسات الأحداث للسلطان المولى الحسن الأول.

إلى الحفاظ على التوازنات المحلية- وخصومهم على سواء بل وسيكون النقطة التي أفاضت الكأس وتسببت في خراب وخلاء قصر أخنوس الكبير المعروف اليوم بقصر أخنوس الخالي، وأيضا مقتل كل رؤوس الفتنة الذين حاولوا الهروب متلثمين في زي النساء بينما بقي زعيم الفتنة "مولاي اعلي القن" تحت الأنقاض مختبئا حتى اكتشف أمره وتم قتله بشكل جماعي على يد خصومه المتعددين أثناء محاولته الفرار خفية.

ومهما يكن في الأمر، فقد اعتبر هذا الحدث الاجتماعي المتسم بالكثير من الفتن ومن الحمولة الحدثية المتشعبة الخيوط على المستوى المجالي الفلالي، من أخطر الأحداث التي عرفها الخليفة السلطاني أي المولى الرشيد بتافيلالت. لكن تمرسه وتجربته وحنكته وإدراكه لمكامن القوة والضعف ولخبايا الخريطة الاجتماعية بتافيلالت، كل هذا أهله ليكون قائدا مخزنيا وفلاليا وسيدا لهذا المجال بكل المقاييس.

إضافة إلى ذلك فإن تمكن الخليفة السلطاني من أوضاع المجال الجغرافي الفلالي أهلته وساعدته نظرته الاستشرافية ذات الأبعاد سياسية فيما يتعلق بقضايا الجهاد ضد المستعمر الفرنسي وأيضا محاولات الاستنزاف الاقتصادي التي حاول المستعمر الفرنسي ممارستها بمختلف الأساليب الاستعمارية داخل المجال الفلالي.

إن التجربة السياسية للخليفة السلطاني جعلته يدرك المطمح الاستعماري الهادف إلى إفراغ المجال الفلالي من كل منتجاته الفلاحية عبر اغراءات مالية تحفيزية للفلاحين قصد بيع كل ميرتهم المدخرة وخلق وضعية أزمة غذائية بالمجال الفلالي، الشيء الذي دفعه إلى مراقبة مسارات

البيع والشراء بما في ذلك منع الاتجار مع الوسطاء المحسوبين على المستعمر الفرنسي بالجزائر.

إضافة إلى ذلك فقد عمل الخليفة مولاي الرشيد على تطويق وتأطير الحركة الجهادية المتنامية بتافيلالت بالشكل الذي يخدم المصلحة السياسية العامة للدولة المغربية.

وفي الختام يمكننا القول بأن الثقل السياسي والاجتماعي للزعيم المحلي المولى الرشيد كسياسي أولا وذلك بانتسابه المباشر لدار المخزن وكإداري ومخزني بتحمله لمهام خليفة السلطان وكاجتماعي ثالثا وذلك بانتمائه لمجتمع تافيلالت، هذه المعطيات وغيرها جعلته يطبع بطابعه السياسي الخاص مجال بلاد تافيلالت لمدة تفوق أربعين سنة.

الوثائق المعتمدة في البحث:

- وثائق محفظة رقم 431 بالخزانة العامة والمتضمنة لوثائق بلاد تافيلالت.
- الوثائق الملكية:
- سجل رقم 15684
- سجل رقم 17470
- سجل رقم 20249
- سجل رقم 20378
- سجل رقم 20971
- سجل رقم 20972
- سجل رقم 21541
- سجل رقم 22162

- الوثائق المخزنية عند عائلة مولاي أحمد بن اليزيد بقـــصر أخنـــوس بالريصاني.

نحو خطة إعلامية عربية مشتركة
من أجل تحقيق التنمية

ذ. إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب – مكناس

لم يعد خافيا على أحد، خاصة من ذوي الاختصاص في الشأن الاقتصادي العربي، **إمكانية الاستفادة** من القدرات الهائلة التي تتميز بها وسائل الإعلام في **التأثير على برامج الأهداف التنموية**، مهما اختلفت خطط التنمية التي يتبناها كل قطر عربي على حدة. ومن الأكيد أن دور الإعلام يزداد تعاظما كلما توحدت الجهود العربية، وتضافرت لإيجاد خطة إعلامية عربية مشتركة كفيلة بتحقيق التنمية الشاملة.

بيد أن قراءة متأنية في واقع الإعلام العربي الراهن، تكشف مدى القصور الذي يعتريه، والأزمة التي تعصف به نتيجة التشتت وعدم التنسيق، والتبعية للإعلام الغربي، وعدم تبني خطة إتصالية محكمة الجوانب، مدروسة على أساس الإيقاعات السريعة التي تفرضها تحولات العولمة، واستراتيجية شاملة تخرج الإعلام العربي من تشتته وانعزاليته، نحو آفاق محددة تجعل التنمية الشاملة من أولويات أهدافه الأساسية، بعيدا عن الدعاية لنظام أو حزب أو قوة اجتماعية معينة.

انطلاقا من هذه المعطيات التي تعكس واقع الإعلام العربي الحالي، تطمح هذه الورقة إلى تقديم مساهمة متواضعة في سياق إيجاد خطة إعلامية عربية بديلة،

تمتلك قوة المبادرة، وتسعى إلى تأسيس نظام إعلامي عربي مشترك، يمتح نظرياته وتطبيقاته من الواقع العربي، ويتفاعل إيجابيا مع واقع التغيرات السوسيو-اقتصادية والثقافية التي أفرزتها العولمة، دون استلاب للهوية الإسلامية، أو تفريط في مكونات الذات العربية التي تستند إلى جانب قيمها الحضارية، على ثرواتها المادية المتمثلة في الموارد النفطية على الخصوص، مما يؤهلها لإنجاز خططها التنموية في ارتباط وثيق مع تحسين أدائها الإعلامي، لأن أي تنمية لا يكتب لها النجاح إلا بخطة إعلامية محكمة الإعداد و التوجيه، وهو ما سنحاول الوقوف عنده في هذا البحث من خلال إبداء مجموعة من الصيغ و المقترحات التي تستلزم تغيير عقليات وسلوكات إعلامية تقليدية في محاولة لإيجاد خطة مشتركة للإعلام العربي، لها فاعليتها وديناميتها. وتتمثل تلك المقترحات في:

أولا: ضرورة الوعي بماهية الرسالة الإعلامية وربطها بمجال التنمية في الوطن العربي:

1- مفهوم الإعلام والرسالة الإعلامية :

الإعلام لغة مشتق من الفعل الماضي الرباعي "أعلم"، ومعناه قام بالتعريف والإخبار بالشيء لغيره، والفعل الثلاثي منه "علم" أي عرف الخبر أو تم إخباره بالخبر. وقد ورد في لسان العرب ((علمت الشيء بمعنى عرفته وخبرته))[1]، ويؤسس هذا المفهوم اللغوي لثلاثة علائق في العملية الإعلامية وهي: الخبر وباث الخبر والمرسل إليه الخبر، وهي ثلاثة عناصر يكتمل بها الإعلام[2].

---

[1]. ابن منظور: **لسان العرب**، مادة علم، طبعة بيروت، ج2، ص 871.

[2]. مصطفى الدميري: **الصحافة في ضوء الاسلام**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة 1408هـ- 1988 م، ص 16

وفي القرآن الكريم، ترد العديد من الآيات الكريمة التي تشير إلى أهمية الخبر وطريقة تبليغه والتأكد من صحته، واختصاص الذات الإلهية وحدها بعلم بعض الحقائق والأسرار الكونية [3].

أما من الناحية الاصطلاحية، فالإعلام كما يذهب إلى ذلك الباحث الألماني "أتوجرت" هو ((التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت))[4]، أو هو حسب الباحث العربي إبراهيم إمام ((تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة و الحقائق الثابتة التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع، بحيث يعبّر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم))[5].

والملاحظ أن التعريفات الغربية والعربية التي سردناها نموذجين منها تتشابه إلى حدّ المطابقة لتأثر المدرسة العربية بنظيرتها الغربية[6]؛ بيد أن نوعا من التميز بدأ يظهر في العقود الأخيرة من قبل بعض الباحثين الذين أصبحوا يتحدثون عن مفهوم الإعلام الإسلامي، وتميز وظيفته بتزويد المتلقي ((بحقائق الدين الإسلامي المستمد من كتاب الله وسنة رسوله بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال وسيلة إعلامية دينية متخصصة أو عامة، بواسطة قائم بالاتصال لديه خلفية واسعة ومتعمقة في موضوع الرسالة التي يتناولها، وذلك

---

[3] يتجلى ذلك في قوله تعالى ((واتل عليهم نبأ إبراهيم))، **سورة الشعراء**، آية 69، وقوله عز وجل: ((يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين))، **الحجرات**، آية 6.

[4] عبد اللطيف حمزة: **الإعلام له تاريخه ومذاهبه**، دار الفكر العربي، القاهرة 1965، ص 23.

[5] ابراهيم إمام: **الإعلام و الاتصال بالجماهير**، مكتبة الأنجلو، القاهرة 1969، ص 11.

[6] مصطفى الدميري: **الصحافة....**، م، س، ص 17.

بغية تكوين رأي عام صائب))[7]. وإذا كان هذا التعريف يحدد الرسالة الإعلامية في تشكيل رأي عام صائب، فإن تعريفا آخر من التعريفات الإسلامية للإعلام يعطي القيم الأخلاقية قصب السبق في تحديد الأهداف الإعلامية، إذ يقول الدكتور عبد الوهاب كحيل: ((الإعلام الإسلامي هو استخدام منهج إسلامي بأسلوب فنيّ إعلامي يقوم به مسلمون عالمون بدينهم، متفهمون لطبيعة الإعلام ووسائله الحديثة وجماهيره المتباينة، مستخدمون تلك الوسائل المتطورة لنشر الأفكار المتحضرة والأخبار الحديثة والقيم الأخلاقية والمبادئ والمثل للمسلمين وغير المسلمين من كل زمان ومكان، في إطار الموضوعية التامة بهدف التوجيه والتوعية والإرشاد لإحداث التأثير المطلوب))[8].

ولعلّ القاسم المشترك في التعريفات الأخيرة يكمن في ربط الرسالة الإعلامية بأهداف مجتمعية وأخلاقية تتمثل في مصداقية الخبر وتهذيب روح المجتمع ورقي مستوى قيمه الأخلاقية.

2– نحو مفهوم يربط الإعلام العربي بالتنمية :

إن المفاهيم التي عرضناها سلفا رغم عمقها وشموليتها، فإنها أغفلت عن قصد أو غير قصد ضرورة ربط الرسالة الإعلامية بالتنمية الشاملة للأمة العربية، ونقصد بها تنمية العقل الاجتماعي المتمثل في القضاء على الأمية والجهل وكافة أشكال التخلف، والمشاركة في التوعية بحقوق الإنسان والمرأة والطفل ونصيب المجتمع من الديموقراطية، والانخراط في المجتمع الدولي المعاصر، والفاعلية في تطويره، وإن كان من الإنصاف العلمي التنويه بعدد من الدراسات التي ربطت

---

[7] محيي الدين عبد الحليم: **الإعلام الاسلامي وتطبيقاته العملية**، مكتبة الغانجي، القاهرة 1980، ص 135.
وانظر أيضا: منير حجاب: **مبادئ الإعلام الاسلامي**، المطبعة العصرية، الاسكندرية 1982، ص 135.

[8] عبد الوهاب كحيل: **الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الاسلامي**، عالم الكتب، بيروت 1985، ص 29.

بين الإعلام والتنمية[9]، غير أن هذه الدراسات افتقرت -على أهميتها - إلى تصور خطة إعلامية شاملة في سياق العلاقة الوطيدة بين الإعلام والتنمية.

إن الوعي بماهية الإعلام وصياغة مفهومه العلمي بمتطلبات العصر وحاجياته وربطه بالتنمية، يعد أولى الحلقات الأساسية لبناء خطة إعلامية عربية مشتركة، ذلك أن وسائل الإعلام التي يجمع الباحثون على تصنيفها في وسائل الاتصال الشفهية والمقروءة والمسموعة والمرئية لها سلطة إقناعية وتأثيرية مهمة على الجماهير العربية[10]، خاصة في العقود الأخيرة التي زادت فيها هذه الوسائل اتساعا وشمولا حتى أصبح العصر الحالي يوسم بأنه عصر الإعلام[11]، وبأنه مجتمع المعلومات و"الملتمديا"، خاصة بعد دخول الحاسوب والأجهزة الرقمية وشبكة الإنترنت إلى عالم الاتصال، ومن ثم يصبح تفاعل الجمهور مع وسائل الإعلام مسألة حتمية، لأنه المعني الأول بمشاكل التنمية.

ومن القرائن التي تؤكد التلازم بين الإعلام والتنمية، ما جاء في المادة الثالثة من الإعلان العالمي لليونسكو الصادر سنة 1970 حول وسائل الإعلام الجماهيري، حيث نصت مادته على ما يلي:

---

[9] أنظر على سبيل المثال: محمد سيد محمد: الإعلام والتنمية، مكتبة الخانجي، القاهرة 1979 – عواطف عبد الرحمن: **إشكالية الإعلام والتنمية الاجتماعية في الوطن العربي**، المركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية، القاهرة 1984، ومن الأطروحات الجامعية أنظر: محروس عبد الخبير محمود عطا: **وسائل الإعلام والتنمية السياسية في الدول النامية** ، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، 1980.

[10] مصطفى الدميري، **الصحافة**... م، س، ص23-24.

[11] ابراهيم محمد سرسيس: **أصول الإعلام الحديث وتطبيقاته**، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، مطابع الصفا بمكة (دون تاريخ)، ص 9.

((على وسائل الإعلام المساهمة في إزالة الجهل وسوء الفهم بين الشعوب، وتأكيد احترام حقوق وكرامة جميع الأمم والشعوب والأفراد، دون تمييز في العرق والجنس واللغة والدين والقومية، وفي إثارة الانتباه إلى الآفات التي تتعرض لها البشرية كالفقر وسوء التغذية))[12].

وفي نفس المنحى، أصرّ بيان هافانا الصادر في أيلول 1979 على ضرورة تقوية مصادر الإعلام الوطنية من أجل خدمة كل ما يتعلق بالتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للدول النامية [13].

وضمن برنامج الاتصال من أجل التنمية، ألحّت منظمة اليونسكو على دعم قدرات الاتصال في البلدان النامية، وحدّدت استراتيجيات متكاملة لتنمية الاتصال، وإقامة التعاون مع منظمات وسائل الإعلام في البلدان النامية لتخطيط وتنفيذ حملات وأنشطة تدريبية ترمي إلى معالجة قضايا التنمية مثل الصحة والتربية الوقائية، والبيئة والسكان، فضلا عن تقديم مساعدات للأفلام والفيديو في الدول النامية، وتشجيع قطاعات التربية والثقافة [14].

ومن القرائن الأخرى التي تؤكد الارتباط الوثيق بين الإعلام والتنمية ما جاء أيضا في توصيات مؤتمر المائدة المستديرة الثاني لرؤساء الصحف الآسيوية المنعقد برعاية منظمة اليونسكو حيث تقول إحدى التوصيات:

((إن مشروعات التنمية لا تستطيع أن تنجح إلا بواسطة المشاركة من جانب الشعوب، الأمر الذي لا يتحقق إلا بمساعدة من جانب وسائل الإعلام،

---

[12] اسكندر الديك، **اليونيسكو والصراع الدولي حول الإعلام والثقافة**، الموسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993، ص 72.

[13] نفسه، ص 77.

[14] نفسه، ص 188.

أي الصحافة التي تتدفق حيوية، وبرامج الإذاعة والتلفزيون المناسبة)). ولاشك أن هذه التوصية تتضمن اعترافا واضحا بخطورة الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في التنمية، إذ ما من خطة تنموية في أي دولة من دول المعمور إلا وتتضمن نوعين من الجهد: جهد مادي تتكلف به الدولة من خلال توفير الظروف المادية والفنية لإنجاح تلك الخطة، وجهد معنوي – وهو الذي يعنينا – ويتمثل في التوعية الإعلامية بأهمية الخطط التنموية، وتقديمها من طرف وسائل الإعلام إلى المكلفين والعاملين بالمشروعات التنموية كي يبذلوا قصارى جهدهم ويلتزموا الالتزام الكامل بنجاحها [15].

وبما أن الإنسان هو الهدف الأول والأخير في التنمية، فلا يمكن أن تتحقق غاياته إلا بحقه في المعرفة والتواصل الاجتماعي والتعبير عن الذات، أي كل الاحتياجات والحقوق الإعلامية والثقافية، مما يؤكد ضرورة الربط بين السياسة الإعلامية و باقي السياسات المطبقة في المجال الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتعليمي بحيث تتكامل هذه السياسات جميعا، ويتشكل منها ما يطلق عليه الخطة الشاملة للتنمية، وهو ما يجعل البعد التنموي للاتصال والإعلام جزءا هاما من الخطة الشاملة للتنمية [16].

يستشف من خلال كافة القرائن التي جيشناها، مدى أهمية الوعي بضرورة توظيف الإعلام العربي كأداة بالغة الأهمية في خدمة قضايا التنمية، فالوعي بهذا الارتباط بين الجانب التنموي والإعلامي يشكل أول لبنة لبناء خطة إعلامية عربية مشتركة تكون بديلا عن واقع الإعلام العربي الحالي.

---

[15] ابراهيم محمد سرسي: **أصول الإعلام الحديث**... م، س، ص 12-13.

[16] عواطف عبد الرحمن: **دراسات في الصحافة العربية المعاصرة**، دار الفارابي، بيروت 1989، ص 97.

ثانيا : ضرورة تحرر الإعلام العربي من الرقابة ، والانتقال من تبرير الواقع إلى موقع المسؤولية والنقد الجاد :

إن قراءة في المشهد الإعلامي العربي الحالي تثبت تخبطه في معضلتين خطيرتين:

أ- انحياز معظم وسائله للأنظمة الحاكمة التي تفرض عليه رقابة دقيقة لضمان ولائه لها.

ب- تبعيته شبه الكاملة للإعلام الغربي الذي يفرض عليه هيمنة واضحة.

ومثل هذه المعضلات تستلزم تصحيح الوضع الحالي وتغييره انطلاقا من المعطيات التالية:

1- التحول من إعلام محابي للسلطة إلى إعلام جاد وناقد :

يتسم المشهد الإعلامي العربي الحالي بانسيابه في اتجاه رأسي من الحكام إلى المحكومين، وحصر وظيفته بالتبرير للإكراهات الاجتماعية وحماية الوضع السياسي والثقافي السائد في الوطن العربي. ويتم تقنين هذا الوضع وإعطائه مشروعيته بإصدار قوانين خاصة بالاتصال، ورسم سياسة إعلامية تتبناها الدولة حفاظا على وضع الحاكم، وتبريرا لهيمنته على رجال الإعلام [17] الذين يصبحون أبواقا لذلك الحاكم يسبحون بحمده، ويسخرون كل الوسائل لتبرير الممارسات اللاديموقراطية التي يقترفها ضد المحكومين، وإن كان من الإنصاف التنويه ببعض الإعلاميين الذين قاوموا كافة الإغراءات الحكومية، ولكنهم تعرضوا للمطاردة والسجن بسبب مقالات أو تحقيقات أثارت غضب السلطة، ولكنها حالات تندرج فيما يسمى في

---

[17] بسيوني ابراهيم حمادة، **دور وسائل الاتصال في صنع القرارات في الوطن العربي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1993 ،ص 169.

عالم الاتصال بنموذج العداء the adversary model بين الإعلامي والسياسي، ولكنه عداء يكون في الغالب الأعم قصير الأمد، وينتهي عموما بمصالحة بين الطرفين، نتيجة الواقع العملي الذي يفرض وجود تفاهم وتعاون بين الطرفين، حتى تصل الرسالة الإعلامية إلى الجمهور[18].

وبصفة عامة فإن العلاقة بين الأنظمة السياسية ووسائل الإعلام تكون علاقة حميمية كما أكدت ذلك الدراسات، فعالم السياسة يصعب أن يوجد من دون عالم الاتصال، لأن هذا الأخير يعدّ حلقة وصل بين الجمهور والنخبة الحاكمة، أيا كانت طبيعة هذه النخبة[19]، وهذا ما يفسر سعي الأنظمة السياسية للسيطرة على وسائل الاتصال ورجال الإعلام[20]، فيصبح الإعلامي طوع يدها، حتى أن هذا الأخير عندما يسعى لجمع مادته أو إذاعتها أو نشرها، فإن علاقته بتلك المادة أو بإطاره المؤسسي أو معاييره المهنية تكون أقل فاعلية من علاقته بأفعال وردود النخبة السياسية التي تشكل مرجعيته الأولى .

وتأسيسا على ذلك، فإن البديل الموضوعي للحالة الإعلامية الراهنة يكمن في تجاوز الوظيفة التقليدية للإعلام العربي بتغيير العلاقة بين السلطة والإعلامي من علاقة محاباة وتبرير الواقع، إلى علاقة جادة ومسؤولة.

2- إلغاء الرقابة المفروضة على الإعلام العربي :

---

[18] نفسه، ص 71 – هذا النموذج تمثله حالة الصحافي المغربي محمد لمرابط الذي تعرض للسجن نتيجة تحقيقات تمس بالسلطة المغربية فزج به في السجن ثم أفرج عنه لتعود العلاقات بين الطرفين عادية.

[19] نفسه، ص 49.

[20] محمد علي العويني: **دراسات في الإعلام الحديث**، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية.

تتنوع وسائل الرقابة الحكومية على وسائل الإعلام في الوطن العربي، وتتخذ أشكالا متباينة في موضوعاتها وأهدافها، فهي تمس بعض الطابوهات في المجال السياسي أو الديني أو الأمني، وتستند على قوانين مدونة، أو تترك للسلطة التقديرية للحكومات العربية. وغالبا ما يتدخل الرقيب في شكل المادة الإعلامية المقدمة قبل نشرها أو إذاعتها، فتتم المصادرة. وبالنسبة لبعض الصحف، يقوم رؤساء تحريرها أو رؤساء النشرات الإخبارية أنفسهم بهذا الدور[21]، ممّا يفرض على الخبر الإعلامي قيودا يصعب فكّها. لذلك فإن المطلوب لتجاوز هذه الوضعية خطة تعوّل في استراتيجيتها على إلغاء الرقابة نهائيا، وترك الحرية لرجال الإعلام في تقديم موادهم بكيفية موضوعية لا تتدخل فيها سلطة الرقيب، على أن يمارس الإعلامي هذه الحرية بكل مسؤولية، بعيدا عن أي تهوّر قد يسبب ضررا للمصالح العليا للأمة. وبرؤية إسلامية متزنة يشير الدكتور مصطفى_الدميري إلى الطريقة الإيجابية في استغلال الحرية الصحافية بالتخفيف من النقد الموجه للسلطة، انطلاقا من المبدأ الإسلامي الذي يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. وكذلك انطلاقا من مفهوم الحرية في الإسلام الذي يجعلها حقا لكل إنسان، لكن دون أن تكون مطلقة، بحيث تلجم الإعلامي دون منعه من أن يكتب ما هو خارج عن حدود الآداب العامة والأخلاق الفاضلة، أو مخالفا لنصوص الشريعة الإسلامية، فضلا عن عدم الاصطدام بالسلطة الحاكمة [22].

---

[21] عواطف عبد الرحمن، **دراسات**....م، س، ص 34-35.

[22] مصطفى الدميري: **الصحافة**.... م.س، ص 150.

3- الاستقلال المادي لوسائل الإعلام العربية :

لا شك أن تبعية التمويل الإعلامي للحكومات أو الأحزاب أو الجهات النافذة يقيد من حرية المادة الإعلامية، ويجعلها خاضعة لتوجه الجهة الممولة، أو لوجهات النظر الرسمية، فتنعدم فيها الآراء المعارضة ورسائل القراء، وإن وجدت فسرعان ما يطالها مقص التعديل والحذف والتنقيح [23].

إن مسألة الاستقلال المادي لوسائل الإعلام وما ينتج عنها من استقلالية في التعبير وتوصيل المادة الإعلامية الموضوعية، هي من القضايا الأساسية التي ينبغي وضع الأصبع عليها لتحقيق خطة عربية إعلامية مشتركة، بهدف نقل الإعلام العربي من الإعلام المحابي للحكومات إلى الإعلام الجاد والمسؤول.

4- تكريس إعلام ملتزم وناقد من أجل بناء الثقة مع الجمهور :

يستلزم بناء إعلام عربي جاد ومسؤول تغيير عقلية مترهلة ترسّخت جذورها نتيجة عقود من الممارسات الإعلامية منذ استقلال الدول العربية. وتحدد هذه العقلية وظيفة الإعلام في استخدامها كأداة في يد الحكومات العربية للقيام بدور الشرح والتفسير والتأييد لقرارات السلطة السياسية، والحال أن التطورات المجتمعية والتحولات السياسية التي عرفها المجتمع العربي تتطلب أن يكون الإعلام أداة للنقد والتوعية الجادة، لأن غياب النقد يؤدي إلى تحجر الفكر والممارسة وتخلف الوضع، وعدم اللحاق بركب التنمية.

يقول أحد المتخصصين في الدراسات الإعلامية عن ظاهرة غياب النقد في الصحف العربية الإسلامية وأسبابها: ((فوجود القيود الحكومية على الصحف الإسلامية يعد مشكلة كبيرة، إذ أن القيود تمنع الصحف من نقد الحكام وإرشادهم وتوجيههم إلى الخير والعدل والحق، وتجعل الصحف سائرة في فلك

---

[23] عواطف عبد الرحمن، **دراسات....م**، س، ص 69.

واتجاه الحكام، ولا تؤدي رسالتها كاملة على نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) [24].

و لا يساورنا شك في أن تحول الإعلام العربي من محاباة السلطة وتبرير توجهاتها، إلى محاسبتها ونقدها بكل حرية، يترتب عنه إعادة المصداقية لها، وهي المصداقية التي فقدتها نتيجة تذبذب مواقفها الفكرية والسياسية تجاه القضايا العربية والدولية، فالمواطن العربي أصبح يحجم عن التقاط بعض الإذاعات السمعية والمرئية أو شراء بعض الصحف نتيجة غياب الروح النقدية فيها، وبالتالي فإنها فقدت المصداقية بالنسبة إليه، لذلك يجب إعادة النظر في التوجهات الإعلامية الحالية، انطلاقا من خطة تستهدف الطلاق مع الماضي بكل سلبياته، والتوجه نحو أفق جديد يتبنى الرؤية النقدية الجادة، والروح الموضوعية، لبناء الثقة بين الإعلامي والجمهور العربي.

ثالثا : ضرورة التحرر من التبعية للإعلام الغربي :

إذا انطلقنا من فكرة انتماء الوطن العربي للعالم النامي، يمكننا استجلاء الخطر الذي يمثله انعدام التوازن بين العالم المصنّع والعالم النامي في مجال خريطة توزيع تبادل الأخبار والمعلومات بين العالمين. وقد سبق لمنظمة اليونيسكو أن وقفت على هذا الخلل، فطرحت في قمة الجزائر لدول عدم الانحياز سنة 1975 ضرورة إعادة تنظيم طرق الاتصال الإعلامي الحالي الموروثة عن الماضي الاستعماري [25]، ثم أكدت في مارس 1976 أيضا على وجوب بعث نظام عالمي جديد في مجال الاتصال تجنبا للتبعية الإعلامية [26].

---

[24] مصطفى الدميري، **الصحافة**....م، س، ص 150.

[25] إسكندر الديك: **اليونيسكو**......م.س، ص 65.

[26] مصطفى المصمودي: **النظام الاعلامي الجديد**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تشرين الأول، 1985، ص 33.

في هذا المنحى إذن، لا سبيل لإنكار تبعية الإعلام العربي الحالي لهيمنة الإعلام الغربي سواء على مستوى المؤسسات الأكاديمية التي تخضع فيها البرامج الدراسية الإعلامية للمؤثرات الغربية، أو على مستوى الأخبار التي يتم استيرادها غالبا من وكالات الأنباء الغربية، فيكون مضمونها بعيدا عن الواقع الاجتماعي والثقافي العربي.

ويعزى السبب في هذه التبعية، إلى الاحتكار الغربي لتكنولوجيا الإعلام حيث يحتكر الغرب موارد الاتصال مثل بنوك المعلومات وشبكة الإنترنيت ووكالات الأنباء وصناعة الورق، خاصة أجهزة الطباعة والتصوير [27].

وينجم عن هذا الاحتكار الغربي لتكنولوجيا الإعلام ازدياد النفوذ الذي تمارسه وكالات الأنباء الغربية في توصيل المشهد السياسي والاقتصادي العربي، وفي تشويه صورة الواقع، خاصة بالنسبة للقضايا القومية أو الصراع العربي- الإسرائيلي أو ما يعرف بالإرهاب لدى الرأي العام العالمي. ولا غرو فقد أكدت الإحصائيات الخاصة بالصحافة أن الصفحات الخارجية لمعظم الصحف العربية تعتمد على وكالات الأنباء الغربية بنسبة 50% من مجموع الأخبار التي تنشرها، بينما لا تعتمد على وكالات الأنباء العربية إلا بنسبة 22%، في حين تنشر ما يناهز 26% من الأخبار الخارجية دون الإشارة إلى المصادر التي تأتي في الغالب من وكالات الأنباء والصحف والإذاعات الغربية[28].

وطبقا للإحصاء الذي نشره الدكتور إسكندر الديك نقلا عن التقرير النهائي للجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال (لجنة ماكبرايد) الذي تم

---

[27] عواطف عبد الرحمن، **دراسات**...م.س، ص 71.

[28] Gehan Rachty ,((Foreign News in Arab Countries)), paper presented for the conference: ((The International News Media and Developing World , Cairo , April 1976

تحريره سنة 1975، فقد وجد في العالم 107 وكالة أنباء قومية موزعة على الشكل الآتي [29]:

القارة / المنطقة	عدد وكالات الأنباء
افريقيا	26
العالم العربي	18
آسيا	19
أوروبا	28
أمريكا اللاتينية	11
أوقيانوسيا	2
أمريكا الشمالية	3
المجموع	107

غير أن هذا الجدول لا يعكس حقيقة الاحتكار الغربي المتمثل في وجود أخطبوط إعلامي عملاق مكون من أربع أو خمس وكالات أنباء عالمية غربية تسيطر على القارات الخمس، ويتعلق الأمر بوكالات "أسوشيتد بريس" و"يونايتدبريس أنترناشيونال" و"رويتر" و"وكالة الصحافة الفرنسية" و"تاس" التي خبا نفوذها مؤخرا بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وحلتّ محلها وكالة أنترفاكس الروسية [30].

وفي نفس السياق أشار التقرير النهائي للجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال في العالم إلى أن العالم يتلقى 80% من الأخبار من لندن وباريس ونيويورك.

ولإعطاء الدليل على هيمنة الوكالات الغربية على وكالات العالم بما في ذلك العالم العربي، نكتفي بإبراز نموذج وكالة أسوشيتد بريس، فهي وكالة

---

[29] اسكندر الديك، **اليونيسكو**... م، س، ص 91.

[30] نفسه، ص 92.

أخبار أمريكية تحتكر توزيع الأخبار والمعلومات على 63% من سكان العالم، ويبلغ عدد زبنائها حوالي 5520 مشتركا موزعين على 108 بلدا في العالم. وقد ارتفع عدد الكلمات التي تبثها الوكالة وترسلها يوميا إلى المشتركين من 3 ملايين كلمة في مطلع الستينات إلى 17 مليون كلمة سنة 1993، ويبلغ طول الاتصال والتلكس التي بحوزتها 227 ألف كلم، أي ما يعادل خمس مرات ونصف قطر الكرة الأرضية، وتملك 62 مكتبا في الخارج وآلاف المراكز لتلقي الأخبار والمعلومات، ولديها صحفيون ومراسلون في 110 بلدا[31].

وكمجال للمقارنة مع وكالات الأنباء العربية، يمكن إيراد وكالة انباء الشرق الأوسط التي هي وكالة أخبار مصرية، حيث تشير الإحصائيات إلى أنها توزع حوالي 100 ألف كلمة في اليوم. ولعلّ مقارنة بسيطة تثبت الفرق الهائل بينها و بين 17 مليون كلمة التي تبثها وكالة "أشوسيتدبريس" [32]، مما يؤكد صحة فرضية الاحتكار الهائل الذي تقوم به وكالات الأنباء الغربية.

وعلى نفس المنوال، يبرز اللاتوازن الإعلامي في مجال البث الإذاعي نتيجة الاحتكار الغربي لتكنولوجيا الإعلام أيضا، إذ أن تصفح الخارطة الإعلامية الإجمالية يثبت خللا واضحا في هيمنة إذاعات أمريكية " كصوت أمريكا " وإذاعة "الحرية" و"أوروبا الحرة" و" بي.بي.سي" و"مونتي كارلو"، وكلها تشكل قوة إعلامية يعجز العالم العربي في وضعه الحالي عن مقاومة غزوها لمجالها الأثيري [33].

---

[31] نفسه، ص 92 وانظر نفس المرجع عن الوكالات الأجنبية الأخرى، ص 73.

[32] نفسه، ص 94.

[33] نفسه، ص 97.

ولا يخامرنا شك في أن هذه الإحصائيات و الملاحظات تعكس أزمة الإعلام العربي الحالي الذي أصبح يغرق في تبعيته للإعلام الغربي، ويعاني من احتكاره، فما هي البدائل التي يمكن توظيفها لوقف زحف هذه الهيمنة الإعلامية الغربية ؟

رابعا: البدائل المطروحة: التكامل الإعلامي العربي لكسر الاحتكار الإعلامي الغربي:

نقترح أن يتأسس التكامل الإعلامي العربي على ما يلي:

1- إزالة الخلل وانعدام التوازن الإعلامي بين الدول العربية :

لا مراء في أن وسائل الإعلام والاتصال تتفاوت مستوياتها بين الدول العربية سواء من ناحية المواد الإعلامية أو من ناحية البرامج، فهناك بعض الدول التي تتجاوز حد الإشباع الإعلامي بسبب وفرة إمكانياتها الإتصالية والإعلامية، خاصة الدول النفطية في الخليج العربي، في حين لا تملك دول عربية أخرى الحد الأدنى من البنى الأساسية المطلوبة لعمليات الاتصال والإعلام، إذ لا تسمح مواردها بإنشاء صحف أو محطات إذاعية أو شبكات تلفزيونية.

تأسيسا على هذه المعطيات، فإن معالجة عدم التوازن الذي يميز المستويات الإعلامية في الوطن العربي يغدو مطلبا أوليا في إطار خطة إعلامية عربية مشتركة، ويكمن العلاج في الوقوف على مواضع الخلل، وسدّ النقص الذي يعتري إعلام بعض الأقطار العربية، سيما أن الوضعية الحالية تبرهن بوضوح أن السياسة الإعلامية القطرية لم تسفر عن تنمية إعلامية، مما يفرض تكامل السياسات الإعلامية العربية في مواجهة التكتلات الغربية، خاصة في هذا العصر الذي أصبحت العولمة تتحكم في مصيره، وأصبح قرية واحدة لا محل فيها للسياسات القطرية القزمية، فأي شبكة وطنية ستكون مقصرة في أداء

مهمتها إذا لم ترتبط ببقية الشبكات الوطنية العربية، لتتكون منها شبكة إعلامية قومية تسعى إلى التعاون مع الشبكات الإقليمية المماثلة في العالم النامي [34].

2- إنشاء وكالة أنباء عربية مشتركة :

إذا تأملنا التوزيع الإعلامي لوكالات الأنباء العربية الحالية نجدها تتنوع على سبيل المثال بين وكالة أنباء المغرب العربي، ووكالة أنباء الخليج، ووكالة جانا ووكالة سبأ إلخ...، لكن هذه الوكالات تفتقر إلى تنسيق بينها، مما يجعل جهودها الإعلامية تتسم بالانكفاء والتقوقع، والقطرية وضيق الأفق، وانعدام تبادل المعلومات، الأمر الذي يستلزم إعادة النظر في رسالتها الإعلامية وأهدافها، وذلك عن طريق الاندماج فيما بينها، وتأسيس وكالة أنباء عربية مشتركة تهدف إلى إزالة الحواجز وتبادل الصحف والبرامج والمعلومات داخل الإطار القومي وتوطيد التنسيق الجماعي والثنائي بين الدول العربية.

صحيح أن ثمة بوادر مهمة على طريق التنسيق الإعلامي كما يثبت ذلك نموذج وكالة أنباء دول الخليج، غير أن مثل هذه المشاريع الإعلامية الإقليمية لا تشكل إلا خطوة أولية نحو استكمال المشروع القومي لوكالة الأنباء العربية [35] التي ستشكل – إن قدر لها الظهور- تكتلا إعلاميا قادرا على مجابهة الاحتكار الإعلامي الغربي والتحرر من هيمنته، لأن تحرير وتطوير وسائل الإعلام القومية جزء لا يتجزأ من الاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي للشعوب العربية.

---

[34] عواطف، **دراسات**....م.س، ص 107.

[35] نفسه، ص 109.

3- تنسيق عربي مشترك في مجال التدريب الإعلامي وبحوث الاتصال:

من بين الجوانب التي يجب التركيز عليها في إطار خطة إعلامية عربية مشتركة، التنسيق والتعاون بين الدول العربية في مجال التدريب وأبحاث الإعلام والاتصال التي يمكن أن تكون على شكل روابط عربية للأكاديميين وللممارسين في مجالات الإعلام والاتصال، بالإضافة إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه الجامعة العربية في تشجيع وتمويل البحوث الأكاديمية المتعلقة بالصحافة العربية أو بالإذاعات المسموعة والمرئية، وعلاقة المشاهدين العرب بالبرامج التلفزيونية ومدى تأثيراتها على هويتهم الثقافية [36].

4- تأسيس قناة فضائية عربية مشتركة تهتم بقضايا التنمية في العالم العربي :

رغم وجود قنوات فضائية عربية تهتم بالشأن العربي، فالملاحظ أنها تهتم بالشأن الغنائي المبتذل، أو بالشأن السياسي، أكثر مما تهتم بقضايا التنمية، ناهيك عن تبعيتها للجهات الممولة لها، بل إنها تساهم أحيانا في إثارة الخلافات والنعرات بين الدول العربية، الأمر الذي يستلزم البحث عن قناة فضائية بديلة تساهم في تمويلها جهات مستقلة تكون لها الحمية القومية والحياد الإيجابي، وتولي كل عنايتها لقضايا التنمية في الوطن العربي من خلال تقديم برامج عن اقتصاديات الدول العربية ومشاكلها والحلول الممكنة لتجاوزها، بالإضافة الى المجال الثقافي والاجتماعي من خلال تشريح الواقع الثقافي والاجتماعي العربي، وإيجاد الحلول لمشاكل الأمية والتخلف التكنولوجي، والاهتمام بموضوع الصحة والمرأة والطفولة والشيخوخة وغيرها من البرامج الاجتماعية التي ترتبط بالأهداف الأساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويستدعي هذا الأمر تاسيس لجنة من الخبراء الإعلاميين في الدول العربية لإنجاز هذا المشروع.

---

[36] نفسه، ص 108.

5- إصدار تشريعات إعلامية جديدة:

إن التشريعات الإعلامية السائدة هي في مجملها ترجمة لواقع القيود والعوائق المفروضة على الإعلاميين، لذلك وجب إعادة النظر في تلك التشريعات وتنقيتها مما يشوبها من مطبات تعرقل عمل الإعلاميين وممارسة حقوقهم المهنية، وتوفير الحرية وضمان الأمان لهم من حيث منحهم حق تشكيل النقابات و الروابط المهنية التي تتولى الدفاع عن حقوقهم المهنية والإنسانية، وإرساء الحقوق الكفيلة بضمان عدم الاعتداء على كل ما يمسّ استقرارهم المهني [37]. وينبغي في هذا الصدد مراجعة وضع وزارات الإعلام العربية التي تمتلك الحق في منح التراخيص وسحبها للمؤسسات الإعلامية كالصحف ومؤسسات الطباعة والنشر وتعيين مدرائها وميزانيتها وموظفيها، مع تحديد مسؤولياتهم، لأن كل ذلك سيقيد حركية تلك المؤسسات ويجعلها تحت رحمة الوزارة الوصية، ويؤثر ذلك بالتالي على الوسائل الإعلامية والاختيارات المتاحة أمام مجالس التحرير في الصحف.

ولا يخفى تأثير القوانين المنظمة للإعلام على العناصر المكونة للمؤسسات الإعلامية، فهي في شكلها الحالي تنص على شروط خاصة بمالك الصحيفة ورؤساء التحرير والمحررين، كما تحدد للصحف محضورات النشر. وتظل هذه المحظورات سيفا مسلطا على رقاب رؤساء التحرير [38]، لذلك ينبغي التخفيف من هذه الشروط، مع تحديد مسؤولية رؤساء تحرير الصحف حتى يتسنى لهم العمل الإعلامي في مناخ سليم.

---

[37] عواطف، **دراسات**...م.س، ص 43.

[38] نفسه، ص 29-30.

6- تحرر الأطر الإعلامية من التبعية الأكاديمية الغربية :

إن التبعية الأكاديمية العربية لمعاهد وكليات الإعلام الغربية ظاهرة واضحة المعالم في الوطن العربي، ولها نتائج خطيرة كما أسلفنا الذكر، إذ تجعل الإعلام العربي لا يخرج في جوهره عن فلسفة المدرسة الإنجليزية السائدة في المشرق العربي، والفرنسية السائدة في المغرب العربي، لذلك فإن المرحلة الحالية تستلزم أن يتحرر تكوين الأطر الإعلامية من تأثير هاتين المدرستين من خلال تغيير مضامين المناهج والمواد التي تدرس بالمعاهد الإعلامية العربية، وإعادة النظر في البعثات الأكاديمية وأهداف تكوينها، وضرورة تزويد هذه المعاهد العربية بمناهج ومواد جديدة ترتكز على الرؤية العربية الشاملة، والأخذ بعين الاعتبار متطلبات واحتياجات الأقطار العربية خاصة في الإعلام التنموي، مما يترك آثاره الإيجابية على تكوين الكوادر الإعلامية المتخصصة، وعلى نوع البحوث التي تقوم بها، وخصوصا الرسائل الجامعية والأطروحات التي ينبغي أن تبرر توجهاتها على أساس قومي تنموي[39]. كما ينبغي تشجيع هذا التوجه بإنشاء فرق بحث جماعية تتولى مسؤولية إعدادها، وبهياكل مؤسّساتية تسهر على نشرها.

7- إغناء المكتبات العربية بالأبحاث والدراسات الإعلامية :

لا يختلف اثنان في الفقر الذي تعاني منه المكتبات العربية في مجال المؤلفات والكتب الخاصة بالإعلام العربي كمّا وكيفا، فبالإضافة إلى هزالة أعداد الكتب في الحقل الإعلامي، يلاحظ من ناحية النوعية أن كمية نادرة منها يتصف بالأصالة والارتباط بقضايا الإعلام العربي المعاصر، لذلك ينبغي إغناء المكتبة بهذه الأصناف من الكتب مثل تاريخ الصحافة العربية، والتشريعات الإعلامية في العالم العربي، وأنماط الملكية في الصحافة العربية،

---

[39] نفسه، ص 79.

والصراع العربي الإسرائيلي، وموقف الإعلام من التنمية القومية، ومشكلات التوزيع والطباعة، ودور الإعلانات في التنمية الاقتصادية.

ولعلّ من المستلزمات التي تتطلبها خطة إعلامية مشتركة جديدة هي إعادة النظر في الكتب الإعلامية التي تتم ترجمتها حيث يتم التركيز حاليا على ترجمة الكتب الأمريكية التي تقتصر في دراساتها على وسائل إعلامها فحسب، مما يسمح بترويج المناهج الأمريكية في تدريس الإعلام، فيتمخض عن ذلك التشويش على فكر الكوادر الإعلامية المتخرجة وبعدها عن واقعها، وإن كان هذا لا يعني دعوة لمناهضة الإطلاع على مثل هذه المناهج الغربية، لكن المقصود عدم طغيانها في المناهج الدراسية الإعلامية الى حد الهيمنة، وربطها بواقع الإعلام العربي الذي يمتلك مميزاته الخاصة، ويصبح شرطا ضروريا لتخريج كوادر إعلامية عربية غير مغتربة عن واقعها، وملتزمة بتطويره وإثرائه.

8- تطبيق اللامركزية في الإعلام العربي وضرورة الانفتاح على الأرياف :

إن تجاوز النقائص التي تشوب الإعلام العربي ومعالجتها يعد أداة هامة لرسم خطة إعلامية عربية تنموية، وفي هذا السياق تأتي مشكلة المركزية التي ترسخت للأسف في أجهزة الإعلام العربي سواء بالنسبة للتوزيع الجغرافي لوسائل الإعلام أو بالنسبة للإدارة، فالبث التلفزيوني يرتبط دائما بالعواصم العربية، كما يتركز معظم الإنتاج الإعلامي فيها، وهو حكم ينطبق أيضا على الصحف والإذاعات والتلفزة ووكالات الأنباء والمطابع.

لذلك وجب توسيع شبكة الإعلام لتشمل كافة المدن العربية الرئيسية على الأقل، ثم انفتاح الإعلام على البوادي والأرياف التي تضم نسبة عالية من ساكنة الوطن العربي، إذ لا ينعم هؤلاء بقراءة الصحف أو التقاط البرامج التلفزيونية، ولاشك أن انفتاح الإعلام على سكان الأرياف والتواصل معهم سيؤدي الى توعيتهم واندماجهم في عالم التنمية، وحصولهم على حقوقهم الإتصالية التي نصّت عليها المواثيق العالمية والمحلية.

9- إدماج الرأي العام العربي في السياسة الإعلامية والحد من هيمنة البرامج الأجنبية :

إذا تبنينا تعريف الدكتور اسماعيل سعد، أمكن القول أن الرأي العام هو حصيلة أفكار ومعتقدات ومواقف الأفراد والجماعات إزاء شأن أو شؤون تمس النسق الاجتماعي كأفراد وتنظيمات، ونظم يمكن أن يؤثر في تشكيلها على عمليات الإتصال التي قد تؤثر بدورها نسبيا أو كليا في مجريات أمور الجماعة الإنسانية على النطاق المحلي أو الدولي [40]، ومعنى ذلك أن ثمة تفاعل لا بد وأن يحدث بين العملية الإعلامية والرأي العام، مما يفترض أن تكون العلاقة بين

---

[40] اسماعيل سعد، **الاتصال والرأي العام: مبحث في القوة والإيديولوجية**، ط2، الاسكندرية 1981، دار المعرفة الجامعية، ص 119.

مالك سلطة الإعلام (الدولة) و الرأي العام (الجمهور) علاقة تكامل، ويكون للطرف الثاني حق المشاركة والقبول أو الرفض. فهل ينطبق ذلك حاليا على طرفي العلاقة في العالم العربي ؟

تكاد هذه العلاقة تصل إلى حد العدم في العالم العربي رغم المواثيق الدولية التي نصت على حق الإنسان في الاستفسار والحصول على المعلومات وإبلاغها للآخرين، أو بكلمة أدق حقه في الاتصال والتواصل ونشر المعرفة وتداولها [41]، غير أن الإعلام العربي يظل ملكا للحكومات العربية التي تتحكم فيه بمزاجها وعقليتها، وتضيق على المواطن في إخفاء ما تود إخفاءه من معلومات، وتتفنن في انتقاء ما تود إيصاله إليه من أخبار، ولا تسمح له بتوجيه الانتقادات أو تقوم باستطلاع لآرائه.

بناء على هذه المعطيات السلبية، ينبغي تصحيح هذا الوضع بإزالة الحواجز الشائكة القائمة بين السلطة الإعلامية والرأي العام، وذلك بتحقيق أكبر قدر من المشاركة الجماهيرية في عمليات الاتصال والإعلام، بحيث لا يقتصر دور الرأي العام في التلقي والاستقبال السلبي للرسائل الإعلامية، بل في مشاركته الفعّالة في السياسة الإعلامية بأخذ رأيه عبر استطلاعات واسعة، وقبول انتقاداته لها.

ولعلّ من أهم الانتقادات التي صمّت السلطات الحكومية العربية آذانها عن سماعها مسألة ربط مضمون المواد الإعلامية بالواقع الاجتماعي والثقافي السائد في الوطن العربي، فمعظم هذه المواد تتميز بانعدام علاقتها بالثقافة العربية

---

[41] أنظر فقرات من البرنامج الرئيسي الرابع لليونيسكو: الاتصال في خدمة البشر، حرية تداول الأفكار عن طريق الكلمة والصورة في: **اليونيسكو والصراع الدولي حول الإعلام والثقافة** لأسكندر الديك السالف الذكر، ص 177-179.

أو بالمشكلات الحقيقية التي تواجه الشعوب العربية في مجال التنمية [42]، ولا تزال النخبة الإعلامية في الوطن العربي تنظر إلى الغرب كنموذج للتقدم الحضاري والسياسي، وتعمل على إخضاع القطاعات الشعبية للأوضاع السائدة عن طريق سلبها القدرة على الرؤية النقدية وتزييف وعيها السياسي والاجتماعي[43]، لذلك فإن المطلوب في هذه المرحلة الكف عن تزييف هذا الوعي وتنمية حضور الواقع العربي في البرامج التلفزيونية، والقطيعة مع ظاهرة استيراد الثقافة الاستهلاكية الأجنبية التي تؤدي في الغالب إلى تعميق الاغتراب الثقافي والاجتماعي لدى الرأي العام. فالمؤشرات الحالية تؤكد أن نسبة عالية من البرامج التلفزيونية تستوردها الدول العربية من الولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا. كما أن هناك 21 وكالة أمريكية من مجموع 25 وكالة عالمية تحتكر الإعلان الدولي، وتوجد لها فروع رئيسية في كل من السعودية وتونس ولبنان ومصر. ولا يساورنا الشك في أن هذه الشركات الأجنبية تقوم بدور الأحزمة الناقلة التي يتم من خلالها ترويج القيم الاجتماعية والثقافية الأجنبية، مما يؤدي إلى فقدان الخصائص القومية المميزة لثقافات الشعوب التي تتعرض لهذه التأثيرات.

ومن أجل تجاوز هذه المعضلة، ينبغي تشجيع إنتاج البرامج العربية في التلفزيون وغيره من وسائل الإعلام من برامج ثقافية واجتماعية واقتصادية، كذا انتاج الأفلام ذات الصلة بالواقع العربي، واستغلال إنتاجات الروائيين العرب في إنتاج المسلسلات العربية. وبالمثل يجب تشجيع تبادل البرامج التلفزيونية بين أقطار العالم العربي، وإنشاء لجنة عربية مشتركة تسهر على إعداد هذا التبادل

---

[42] أنظر النماذج التي أوردها الشيخ ابراهيم محمد سرسيس، **أصول الإعلام**....،م.س، ص 49-50.

[43] عواطف، **دراسات**....م.س، ص 92.

وتنميته. ولا يخفى في هذا الصدد ما طرحه الشيخ ابراهيم محمد سرسيس عن أهمية الدراسات السيكولوجية لجماهير الاتصال[44] للوقوف على الإعلام المرغوب فيه ونوعياته كرغبة فئة الشيوخ في تتبع البرامج الطبية ومراسلة مقدمها، ومطالعة بحوث الأطباء المنشورة في المجلات الطبية والصحف والبرامج الدينية، وكذلك الحاجة الإعلامية للمرأة من حيث البرامج التربوية لغرس الاتجاهات الخلقية في نفوس الأبناء، وبرامج مشكلات الأسرة والتوعية التغذية، وكذلك الأمر بالنسبة للشباب والأطفال والمراهقين وغيرهم من فئات المجتمع، وينبغي أن تتم دراسة خصائص كل فئة عمرية وحاجتها الإعلامية من خلال وقوف الإعلام على ثلاثة أمور:

1- الوسيلة: أي الطريقة التي يمكن بها مخاطبة هذه الفئات.

2- المادة: أي الرسالة التي يمكن توجيهها إليهم في المجال الإعلامي.

3- المتابعة: أي معرفة النتائج ومواجهة المشاكل التي يمكن أن تحدث أثناء عملية الاتصال وبعدها [45].

10- نهج سياسة إعلامية تنموية :

أورد أحد الباحثين خصائص الإعلام الناجح، فلخصه في مجموعة من النقط التي يهمنا منها قوله أن تكون الرسالة الإعلامية ذات معنى في حياة المتلقي، وأن تكتسب ثقته، وأن يكون لها مطالب واضحة وأهداف محددة[46]. وأعتقد أن مثل هذه الخصائص تختزل في أهداف التنمية بالنسبة للمواطن العربي، لأنها تجمع بين كل تلك الخصائص، ومن ثم تبدو أهمية السياسة الإعلامية

[44] ابراهيم سرسيس، **أصول الإعلام**.... م.س، ص 47.

[45] نفسه، ص 48.

[46] نفسه، ص 64-65-69.

التنموية ضمن الخطة الإعلامية العربية التي نحن بصدد اقتراحها. وكما أسلفنا القول في المحور الأول من هذا البحث، فإن تبني خطة إعلامية عربية مشتركة ينبغي أن ترتبط عضويا بقضايا التنمية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لذلك نرى ضرورة تركيز هذه الخطة على ثلاث قضايا أساسية تهم التنمية في الوطن العربي والتي يجب على الإعلاميين العرب إيلاءها كل عناية وهي:

- الممارسة الديموقراطية من خلال حرية التعبير والنقد، وذلك من خلال توجيه الجمهور نحو ترسيخ قيم النقد البناء لخطط وبرامج وممارسات الحكومات العربية، من أجل توفير مناخ صحي ديموقراطي يسمح للإعلام بممارسة مسؤولياته التاريخية والتعبير بموضوعيته عن آراء الجماهير واتجاهات الرأي العام، بهدف صنع القرارات السياسية الصائبة، وإعادة تشكيل الواقع الاجتماعي والثقافي العربي بما يتفق مع هويته الحضارية ومصالحه الاقتصادية والسياسية.

- التنمية القومية الشاملة في العالم العربي بأسره، خاصة أن مسؤولية الإعلامي المنتمي اجتماعيا للطليعة المثقفة، تصبح مسؤولية جوهرية في تجنيد نفسه للتصدي لكل مشاكل التخلف التي يعاني منها المجتمع العربي، وفي مقدمته مشكل الأمية التي تبلغ نسبتها أكثر من 70%، وهي من أكثر المطبات التي تعرقل التنمية. كما يجب تجنيد الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى للنهوض بالتعليم والتصنيع والإصلاح الزراعي والنهضة الصحية.

- المساهمة في بناء الفكر القومي النهضوي: فرجال الإعلام مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بإعادة الثقة في نفسية المواطن العربي بتراثه القومي، خاصة بعد النكسة الأليمة التي تعرض لها مؤخرا مع الاحتلال الأمريكي للعراق، ومحاولاته الطامعة في النيل من الأنظمة العربية القومية الأخرى.

وفي نفس المنحى، ينبغي للإعلامي أن يسخر جهده لتشجيع المبادرات الوحدوية والالتفاف حول هذا الهدف الحيوي، وتحويل الولاء القطري إلى ولاء قومي، وتسليح الرأي العام بالوعي السياسي والقومي لمواجهة الغطرسة الصهيونية، وإدراك العلاقة العضوية بين تحرير الأراضي العربية وتحقيق التنمية المنشودة.

خاتمة:

سعى هذا البحث إلى تقديم تصور لخطة إعلامية عربية مشتركة تصبو إلى تحقيق التنمية العربية الشاملة من خلال تقديم مجموعة من المقترحات في هذا الصدد، بيد أن تحقيق هذه الأهداف مرتبط باقتناع صناع القرارات العربية بمبدأ إعطاء مسألة الإعلام والاتصال أولوية قصوى في مجال التخطيط والتمويل، ومنح الرأي العام حقه في الاتصال والحصول على المعلومات، والمشاركة في هذا المجال بحيوية وفاعلية لارتباطه بصميم الإطار النظري الذي يحدد ويحكم الممارسات الإعلامية، وقد استنتجنا أن وضع خطة إعلامية عربية ناجحة لا تتم بمعزل عن قضايا التنمية، وحماية الذات العربية والهوية الحضارية الإسلامية، وهو ما حاول هذا البحث ملامسته والدعوة إليه.

تمّ بحمد الله

مكتبة البحث

1 -القرآن الكريم

2- إبراهيم إمام ،**الإعلام والاتصال بالجماهير**، مكتبة الأنجلو، القاهرة 1969.

3- إبراهيم محمد سرسيس، **أصول الإعلام الحديث وتطبيقاته**، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، مطابع الصفا بمكة (دون تاريخ).

4- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة بيروت، الجزء الثاني.

5- إسكندر الديك، **اليونيسكو والصراع الدولي حول الإعلام والثقافة**، بيروت 1993، المؤسسة الجامعية للنشر.

6- إسماعيل سعد، **الاتصال والرأي العام : مبحث في القوة والإيديولوجية**، الإسكندرية 1981، (طبعة ثانية) دار المعرفة الجامعية.

7- بسيوني إبراهيم حمادة، **دور وسائل الاتصال في صنع القرارات في الوطن العربي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1993 .

8- عبد اللطيف حمزة، **الإعلام له تاريخه ومذاهبه**، دار الفكر العربي، القاهرة 1965.

9- عبد الوهاب كحيل، **الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي**، عالم الكتب، بيروت 1985.

10- عواطف عبد الرحمن، **دراسات في الصحافة العربية المعاصرة** ، بيروت 1989، دار الفارابي. .

11- محمد سيد محمد، **الإعلام والتنمية**، القاهرة 1984، دار الفكر العربي، (طبعة رابعة).

12- محمد علي العواسي، **دراسات في الإعلام الحديث**، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية.

13- محيي الدين عبد الحليم، **الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية**، مكتبة الغانجي، القاهرة 1980.

14- مصطفى المصمودي، **النظام الإعلامي الجديد** ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تشرين الأول، 1985.

15- منير حجاب، **مبادئ الإعلام الإسلامي**، المطبعة العصرية، الإسكندرية 1982.

16- Gehan Rachty ,((Foreign News in Arab Countries)), paper presented for the conference: ((The International News Media and Developing World , Cairo , April 1976

وقائع الجلسة الختامية :

شهادات في حق المشمول برحمة الله الأستاذ قدور بوزياني

شهادة شعبة التاريخ : ألقاها الأستاذ أحمد علمي:

بسم الله الرحمان الرحيم،

ماذا عساني أقول في المرحوم قدور بوزياني، الزميل الذي فارقنا بغتة، عرفت المرحوم بوزياني منذ أن التحقنا بالشعبة تقريبا عشرين سنة مضت، و لم أرى فيه إلا الأستاذ بما تحمله كلمة أستاذ من معاني، لا في علاقته مع زملائه الأساتذة داخل الشعبة ولا حتى خارج الشعبة، فكان صديق الجميع ومحبا للجميع، وكان كل الأساتذة من مختلف الشعب يحبونه ويقدرونه على لطفه وعلى لباقته وعلى تعامله المرن مع مختلف الأساتذة بمختلف تخصصاتهم. كان الأساتذة بوزياني رحمه الله في يتعلق بعلاقته مع طلبته يتميز بعلاقة طيبة جدا، فكانوا يحبونه بشكل كبير، فكان أستاذا مربيا عود طلبته على الاحترام وعلى عدم التطاول، وعلى الأخلاق الحسنة التي هي أساس العلم والتعليم.

على مستوى العلاقات مع الأستاذة داخل الشعبة، فقد كانت له علاقات ودية جدا، كانت معاشرته طيبة ومجالسته لهم طيبة جدا. لم يحدث أن دخل في خلاف ولو جزئي مع أحد زملائه، حتى أنه في الشعبة كان يلازم الأساتذة الباحثين المتخصصين سواء في التاريخ أو في غير التاريخ للاستفادة منهم، ومن خبرتهم، ومن أقدميتهم في مجال البحث العلمي إذا كانوا أكبر منه سنا، وأقدم منه في مجال البحث والتدريس. فبوزياني رحمه الله وهو في سن الأربعين.

تميز على مستوى البحث العلمي بكونه أستاذ باحثا بما للكلمة من معنى، وكان مجدا في عمله، كان دائما يناقش باقي الزملاء فيما يتعلق بالقضايا التاريخية الكبرى، وكان يجالسهم ويناقشهم أبحاثه ونشره فقد حدثنا زميلنا الأستاذ حيمر جمال في الجلسة الأولى من هذا اللقاء عن بعض مما نشره وبعض ما كتبه، فقد كان أستاذا مساهما ومشاركا في التظاهرات العلمية سواء داخل الوطن أو خارجه.

إذن هذه كانت جزء من صات الجليل بوزياني رحمه الله، ندعو له بالمغفرة والرحمة، ومن بين ما أتذكر للأستاذ بوزياني أنه ليس من أولئك الذين يحسون الحياة دائمة بل كل يعتبرها زائلة، وستنتهي في يوم من الأيام، حتى أنه عندما مات الأستاذ بوزياني وهو أستاذ عزيز علينا جميعا افتقدناه، ذهبنا لشركة تؤمن على الحياة، فقال لنا صاحب الشركة إن الموت يتم التعويض عليه بحسب الدرجات، فإن كان الموت عاديا فسيكون التعويض عاديا، وإذا كان عنيفا فسيكون التعويض قويا ومرتفعا، فكان رحمه الله يمزح في هذا الكلام حين قال عليك أن تختار موتك، وإذا أردت أن يكون تعويضك مرتفعا فعليك بالموت العنيف، وكنا نهزأ من هذا. وكان يعرف رحمه الله أنه سيموت في أجل قريب، كان يستخف بالحياة، فرحم الله الأستاذ قدور بوزياني ونتمنى أن تسير الشعبة على الخطى التي رسمها من علاقات ودية وطيبة بيننا، ونرجو للجميع دوام الصحة والعافية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شهادة شعبة اللغة العربية وآدابها : ألقاها الأستاذ سعيد الأيوبي:

بسم الله الرحمان الرحيم،

"إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون،تعرف في وجوههم نظرة النعيم، يسقون من رحيم مختوم، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون" صدق الله العظيم.

اللهم اجعل فقيدنا قدور بوزياني من الأبرار. الذين وصفت حالهم عندك في هذه الآية الكريمة، كلما أنشد قول أبي تمام :

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحر
تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناء لقدر لم تجبه أنامله

وقال الصولي للقاسم بن اسماعيل: أما تسمع يا قاسم؟ قال :بلا والله يا سيدي، فقال الصولي: إنه اختم، وما استمتع بخاطره ولا نزح عني فكره حتى انقطع عمره. والنبغاء كما تؤكد القاعدة العلمية لا يعمرون طويلا، هذه إحدى سنن الكون، إذ النمو العقلي يقتات ويتغذى من العمر الزماني، وقد كان المشمول برحمته الواسعة قدور بوزياني ذكيا، فطنا لبيبا، ثاقب الرأي راجح العقل، سديد الفكر، دمث الأخلاق، خفيف الروح، سهل المخالقة، سهل المعاشرة. بهذه المعاني الإنسانية الرائعة الكثيرة التي حواها عقله وقلبه، ومدت يد المنون سهامها التي قصفته، وكأنها تروم الانتقام منه، فأثرت في أهله وأحبابه وزملائه حاجة تلح إلى رؤيته، ووجعا لا ينتهي لفراقه، عامرته رحمه الله لأوقات قصيرة داخل الكلية وخارجها فتنسمت منه رائحة الخلق الكريم ومروءة البدوي

الصميم، وعزة نفس الشهم العظيم. لقد استعجل الدهر هزيمته، وأسقط خديجا لغير تمامه وهو ابن الأربعين، ولو تمهله الموت قليلا لنجابته.

وظهرت شواهد نبوغه سافرة تامة. ولكن يد المنون قد قصت جناحه مبكرا بعد أن تحدى المرض وقاومه في صمت وخشوع رهيبين، حتى انتهت به المغالبة إلى ميناء الموت، تجلل وجهه في الوحشة العميقة والصمت المصيب. أذكر أنه كلما التقيت به رحمه الله كانت الابتسامة الصادقة الصافية البريئة تملأ محياه وألق النجابة والذكاء يشع من عينه وعبارات التقدير والمحبة تنطلق من شفتيه. فها قد تكسرت مجاديف سفينة حياته الهادفة على شاطئ صخرة الموت العاتية. فمهما حاولنا أن نرم الجرح الغائر الذي أجدته فينا فراقه في مكابرة أبيه، فلن نستطيع أن نلجم أحاسيسنا، ونصادر فيض عيوننا وقلوبنا، ونصرخ صيحات الوجع واللهفة فينا، غير أن حسن الأحدوثة بنبل أخلاقه وعظيم مكارمه ونقاء سريرته وطويته يخفف عنا بعض ما نجده من وحشة فراقه. جعل الله روحه الطاهرة البريئة تسعد وتسرح بين تيجان السرور، وأكاليل الزهور، وباقات العطور وهالات النور،وكنوز اللآلئ المنثور، في فسيح جناته، وغفر له بمنه، وألهم ذويه الصبر والسلوان،وجعل في عقبه من ولده البركة والسداد من الرحمان، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

شهادة وحدة التكوين والبحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي: ألقاها رئيس الوحدة الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش

بسم الله الرحمن الرحيم،

وبعد،،، لا يمكن للمرء أن يتحدث عن وحدة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي خلال الوسيط دون أن تنتصب أمامه قامة الأستاذ المرحوم قدور البوزياني، وبصماته الواضحة في إنجاح عملها التربوي والعلمي. ومهما حاولت أن أرسم صورة لإسهامه العلمي بهذه الوحدة فأنني أقف عاجزا عن استيفاء كافة جوانب شخصيته الغنية: أريحية الطبع، سماحة النفس، دماثة الخلق مع غزارة العلم، ونكران الذات، تواضع وعفة... فكر ثاقب، ورأي حصيف... أنعم الله على الفقيد بحكمة الإصغاء بدل الكلام، والتعالي عن السخائم، مع رشاقة النكتة، وطيب الخاطر. كان رحمه الله غيورا إلى حد الهوس على وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ملتزما بمبادئها ورؤيتها التاريخية، محتضنا لطلبة الوحدة ببهجتها الابلونية، وبجديته التي لا تخبو... عشرات من الطلبة تدفقوا من تحت معطفه العلمي يوجههم ويشرف عليهم، ويغدق عليهم بمعين علمه، ويجعلهم مواكبين لكل جديد.. كان يبذر في وجدانهم بذور حب البحث والتنقيب وروح النقد، ويعرفهم بآخر صيحات المناهج المعاصرة، وكيفية تشغيل آليات التحليلية وطرقها التأويلية...

فرحم الله تلك الروح العالمة، وأسكنها فسيح جنانه، ورزق أهل الفقيد الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

((يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية
فادخلي في عبادي وادخلي جنتي))

صدق الله العظيم



حياة الأستاذ قدور بوزياني
رحمه الله في سطور

*ولد الراحل قدور بوزياني بوطاط الحاج بتاريخ 01/01/ 1961

* تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي بوطاط الحاج

* تابع دراسته الإعدادية والثانوية بمدينة كرسيف

* بعد حصوله على شهادة الباكالوريا سنة 1979 بدأ دراسته الجامعية بكلية الآداب، ظهر المهراز بفاس ، شعبة التاريخ .

* حصل على الإجازة من هذه الكلية سنة 1983

* بعد نجاحه في مباراة تكوين المكونين في نفس السنة، قضى بكلية الآداب بفاس سنتين في إطار تكوين المكونين ليحصل على إثرها على دبلوم الدراسات الجامعية المعمقة سنة 1986

* تم تعيينه أستاذا مساعدا بكلية الآداب بمكناس سنة 1986

* حصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بفاس، ظهر المهراز سنة 1989، وذلك في موضوع "المغرب وباشوية الجزائر 1650م– 1727م: مساهمة في دراسة العلاقات المغربية-العثمانية "

* سجل أطروحته لنيل دكتوراة الدولة بكلية الآداب بالرباط سنة 1994 تحت إشراف الأستاذ محمد الموذن في موضوع: "جوانب من تاريخ البحرية الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط (القرن 16 – 17م)، ولكن المنية لم تمهله لإتمامها.

* خلف العديد من المقالات والأبحاث المنشورة في مجلات ودوريات علمية.

*ظل يشتغل بكلية الآداب بمكناس منذ 1986، وعرف بنشاطه وحيويته سواء على مستوى التدريس أو البحث العلمي إلى أن رحل إلى دار البقاء يوم الأحد 18 يناير 2004

اللجنة المنظمة لتكريم الفقيد

- الأستاذ ابراهيم القادري بوتشيش
- الأستاذ محمد تضغوت
- الأستاذ جمال حيمر
- الأستاذ عبد الفاضل الصافي
- الأستاذ أحمد محمودي

البرنامج العام

الخميس 17 فبراير 2005 :

8.30 : الجلسة الافتتاحية

- كلمة السيد رئيس الجامعة
- كلمة السيد عميد الكلية
- كلمة اللجنة المنظمة

استراحة

الجلسة الأولى : قضايا في التاريخ العثماني

رئيس الجلسة : ذ. جامع بيضا

9.30 : من إسهامات الفقيد قدور بوزياني في كتابة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية

ذ. جمال حيمر

9.45 : العثمانيون في مخيال الغرب

ذ. محمود إسماعيل

10.00 : مسألة " الخلافة العثمانية " : مقاربة تاريخية

ذ. عبد الفاضل الصافي

10.15 : الدولة العثمانية في مواجهة الصهيونية في فلسطين

ذ. محمد أمحزون

10.30 : الأتراك ومؤسسة الجيش من تاريخ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول

ذ. محمد تضغوت

10.45 : العلاقات الإسلامية – المسيحية في عهد الدولة العثمانية

ذ. علي العشاق

11.00 . مناقشة مفتوحة

15.00 : الجلسة الثانية : قضايا في التاريخ القديم والوسيط والمجتمع العربي المعاصر :

رئيس الجلسة : ذ. محمود إسماعيل

15.00: الخريطة الأثرية بالمغرب القديم

ذ. محمد مقدون

15.15 النقائش اللاتينية بموريطانيا الطنجية

ذ. مصطفى الغيثي

15.30 : عروبة القدس منذ فجر التاريخ

ذ. السعيد لمليح

15.45 : نحو خطة إعلامية عربية مشتركة من أجل تحقيق التنمية

ذ. إبراهيم القادري بوتشيش

16.00 : منطقة الخليج العربي في العصر الوسيط من خلال رحلة ناصر خسرو

ذ. أحمد المحمودي

الجمعة 18 فبراير 2005

الجلسة **الثالثة : قضايا في التاريخ الحديث والمعاصر**

رئيس الجلسة : ذ. لحسن أغزادي

9.00 : في التصوف المغربي : عين الفطر تيط أمغار بين الواقع التاريخي والخيال

ذ. إدريس أبو إدريس

9.15 : النقل ووسائله : رؤية تاريخية

ذ. أحمد علمي

9.30 : وضعية تافيلالت في نهاية القرن 19 وعلاقتها مع السلطة المركزية

ذ. محمد لمراني علوي

10.00 الصحافة والإصلاح في مغرب ما قبل سنة 1912

ذ. جامع بيضا

10.15 : مناقشة مفتوحة

11.00 :**الجلسة الختامية :**

شهادات في حق الراحل قدور بوزياني

3.00 : بعد صلاة العصر :

زيارة جماعية لقبر الفقيد ترحما على روحه الطاهرة

تقديم

مما يحمد لكلية الآداب بمكناس، وفاؤها لأرواح أساتذتها الذين رحلوا عنها إلى دار البقاء، بعد أن أمضوا ردحا من حياتهم في خدمتها، وبذلوا في حقل العطاء والمعرفة وتربية وتكوين الطلاب من الجهد والعناء ما لا تفي الكلمات في حقهم. وقد كان المشمول برحمة الله الأستاذ قدور بوزياني من هذه الثلة التي لحقت بجوار ربها بعد أن أدت الأمانة الملقاة على عاتقها ؛ فمنذ التحاقه برحاب هذه الكلية سنة 1986، وهو يستفرغ طاقته الأكاديمية والتربوية، ويبذل بسخاء كل ما لديه من قدرة علمية وهبها الله إياه،حتى وافاه الأجل المحتوم في عام 2004 . وبرحيله، فقدت الكلية أستاذا ومربيا من الطراز الرفيع، وعالما من طينة العلماء المتواضعين الذين رحلوا في صمت ...وها هي ذي الكلية تودع ابنها البار بقلوب مكلومة من هول الفاجعة، وجرح غائر من فداحة الصدمة ...

ووفاء لروح هذا الفقيد، وما قدمه من أيادي بيضاء لطلابه، وللبحث الأكاديمي بصفة عامة، فكرت وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي، بتنسيق مع شعبة التاريخ بكلية الآداب بمكناس، في تنظيم يومين دراسيين لتكريم روحه الطاهرة، عربون وفاء، ولمسة إخلاص لشخصه النبيل.

وما إن بدأت هذه الفكرة في التكوّن، حتى تحمّس لها الأساتذة في شعبة التاريخ وغيرها، فضلا عن إدارة الكلية، وأبدى الجميع استعداده الكامل لإنجاحها عطاءا وتنظيما. وكان من المتوقع أن يفوق عدد الأبحاث المقدمة في

هذا التكريم فوق ما كنا نتصور، لولا أن اللجنة التنظيمية ارتأت أن تحصرها في مجال التاريخ العثماني الذي كرّس الفقيد قلمه للنبش في أغواره وتعميق معول البحث فيه، إلى جانب القضايا الجديدة المطروحة على الساحة التاريخية أو المواضيع الراهنة باعتبار أن الفقيد رحمه الله كان شديد الحرص على مبدأ الاجتهاد والتجديد، واستيعاب آخر صيحات الدراسات التاريخية والمقاربات ذات الصلة براهنية المجتمع الدولي. لذلك جاءت الأبحاث المقدمة في هذا الكتاب متنوعة بين التاريخ العثماني والقضايا التاريخية المعاصرة، فضلا عن أبحاث أخرى تصب في واقع العالم المعاصر وتحولاته الكبرى .

وإن الأساتذة المنتمون لوحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وشعبة التاريخ، إذ يقدمون هذا الإنتاج دليلا على روح التقدير والإخلاص لزميلهم، فإنهم يفتخرون بسنّ هذه المبادرة الحميدة المتمثلة في تكريم الأساتذة الذين رحلوا عنهم إلى دار البقاء، و يعتدون بقيمتها الرمزية التي تفوح بصدق الإحساس وعبق المحبة، لأخ وصديق وباحث بذل الغالي والنفيس في خدمة الكلية والشعبة ووحدة الغرب الإسلامي، بنفس القدر الذي عمل فيه دون كلل أو ملل وكرّس وقته ووهب حياته -القصيرة أمدا، العامرة عطاء- لإثراء البحث الأكاديمي، وخاصة حقل الدراسات العثمانية الذي تبوأ فيه مكان الريادة .

فالله نسأل أن يشمله بواسع رحمته، وأن يتقبله في زمرة العلماء المخلصين، والصديقين والشهداء والصالحين، إنه سميع مجيب .

عن اللجنة المنظمة :

المنسق : إبراهيم القادري بوتشيش

شهادة الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل قدمها باسم الأساتذة الذين تكون على أيديهم الفقيد المرحوم قدور بوزياني في مرحلة الدراسات العليا :

إبن بار من أبنائنا البررة وفارس نبيل من فرسان الكلية يرحل عنا

بسم الله الرحمن الرحيم

يعز عليّ أن أنعي في كلمة فارسا من فرسان الكلمة...إبنا بارا من أبنائي البررة...وصديقا آنست فيه علما وحلما، ونعمت منه بطيب عشرة..

رباه، كيف لعقلي الكليل أن يجود بكلمات يخطها قلمي، وحروف على بياض ورقة كبياض قلبه ؟

وكيف أخلد ذكرى رحيل " قدور" حين غافلنا وراح يسعى لمقدور قدره ؟

ولماذا حفر الفارس قبره،

زاهدا فيما تبقى مضمرا بسني عمره ؟

تاركا لرفاق الدرب حلمه النبيل حين عجز جده العليل عن حمل رأس كاسح لم يسعفه الوقت للبوح بمكنون علمه...

عرفت " قدور" ضمن من عرفت من رفاقه النابهين إبان وجودي بكلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس في بداية الثمانينات من القرن الماضي، طالبا متميزا يفتض بالتساؤل مكنون " المسكوت عنه"، وإذ يبوح، يكشف باقتدار عن " اللامفكر فيه ".

وحين عدت إلى مصر، ظل يواصل دراسته العليا متخصصا في التاريخ العثماني، حتى عين للتدريس بكلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس التي – من حسن حظي – ضمت نخبة من خيار تلامذتي النبهاء الذين تولوا التدريس بها. ومن ثم، لم تنقطع صلتي بهم، حيث أشرفت على بعضهم في إعداد أطروحات

الدكتوراه، فضلا عن المشاركة السنوية – تقريبا- في الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية.

من هنا توطدت علاقتي بقدور متجاوزا إطار "التلمذة" ليصبح صديقا من أعز الأصدقاء، وقدر لي الوقوف على مكنونات عقل وقلب ذلك " البدوي" المتوهج فكرا، والدمث خلقا. وبرغم مرضه المزمن الذي أصاب قلبه الأخضر، كان فارس مجالسنا بتفكيره الفطن، و " قفشاته " ونكاته الذكية، فكان جليس إقناع وإمتاع .

أذكر إبان لقائي الأخير به في المغرب – وقد اشتد عليه المرض – كان شديد التعلق بالحياة، إذ كلفني بإرسال بعض الكتب المتعلقة بأطروحته للدكتوراه من مكتبات القاهرة، كما وعدني بإرسال عدد من دراساته لتنشر في الدوريات المصرية.

ولما عدت إلى القاهرة منتظرا رسالته، توصلت برسالة أخرى من أحد أصدقائه تحمل نبأ رحيله...

وكانت الفجيعة....

فجيعة أحلام عريضة لم تتحقق....فجيعة قلب نابض بالحياة، وأدته الحياة.

لكن ذكراه العطرة ستظل شاهدا على خلوده في عقول تلامذته وفي قلوب رفاقه.

تحية لخير الأخيار، في جنة الأبرار، مادام الليل يلد النهار.. حتى نلقاك بعقبى الدار.

شهادة الأستاذ جامع بيضا باسم الجمعية المغربية للبحث التاريخي :

كان حريصا على تعزيز صفوف الجمعية المغربية للبحث التاريخي

بسم الله الرحمن الرحيم

تعرفت على الأستاذ المرحوم قدور بوزياني في إطار الأنشطة العلمية التي دأبت الجمعية المغربية للبحث التاريخي على تنظيمها سواء تعلق الأمر بندواتها المختلفة، أو القراءات التي تنظمها للإصدرات الجديدة، أو في أيامها الوطنية التي تعقد سنويا في هذه الجامعة أو تلك. وقد كان المرحوم حريصا على تعزيز صفوف الجمعية المغربية للبحث التاريخي، وعيا منه بأهمية هذه الجمعية كملتقى لباحثين يتقاسمون نفس الهموم العلمية حتى يتحاوروا في مجالات تخصصهم، ويتبادلوا تجاربهم العلمية والمنهجية. ولا يمكن أن أستحضر هذا الحرص دون استحضار اسم زميل آخر عزيز علينا جميعا والذي ناداه ربه أيضا إلى جواره، أعني الفقيد الأستاذ بوشتى بوعسرية.

لقد كان كل من المرحوم بوعسرية والمرحوم بوزياني ينتهزان أي نشاط أو أي قراءة تنظمها الجمعية بالرباط ليتجشما مشاق السفر ليكونا في الموعد مع النشاط العلمي المنظم. وكثيرا ما ضرب المثل - وهذه شهادة — بوفائهما وإخلاصهما وحرصهما لانتقاد تقاعس بعض القاطنين في الرباط، والذين كانوا يفضلون القيلولة بعد وجبة الغذاء على حضور أنشطة الجمعية وتعزيز صفوفها.

أحتفظ شخصيا للفقيد قدور بوزياني بصورة رجل هادئ متواضع بشوش، صاحب النكتة الطريفة، متطلع دوما إلى تعميق معارفه، ذو صدر رحب للحوار العلمي الجاد والبناء، وتلكم خصال مطلوبة من كل الذين ينتمون إلى حنطة معشر المؤرخين، فرحمة الله الواسعة على فقيدنا العزيز قدور بوزياني، فقد اختطفته يد المنون وهو في ربيع العمر، وفي بدايات مشواره

العلمي الواعد. وفقد في غيابه المؤرخون المغاربة عنصرا نشيطا وباحثا موهوبا ورفيقا وفيّا، فليتغمده الله عز وجل برحمته الواسعة وليرزق عائلته الصغيرة وعائلته الكبيرة وأسرة المؤرخين الصبر والسلوان، وإن لله وإنا إليه راجعون.

شهادة شعبة التاريخ : ألقاها الأستاذ أحمد علمي :

كان أستاذا مساهما ومشاركا في التظاهرات العلمية سواء داخل الوطن أو خارجه.

بسم الله الرحمان الرحيم،

ماذا عساني أقول في المرحوم قدور بوزياني، الزميل الذي فارقنا بغتة، عرفت المرحوم بوزياني منذ أن التحقنا بالشعبة تقريبا عشرين سنة مضت، و لم أرى فيه إلا الأستاذ بما تحمله كلمة أستاذ من معاني، لا في علاقته مع زملائه الأساتذة داخل الشعبة ولا حتى خارج الشعبة، فكان صديق الجميع ومحبا للجميع، وكان كل الأساتذة من مختلف الشعب يحبونه ويقدرونه على لطفه وعلى لباقته وعلى تعامله المرن مع مختلف الأساتذة بمختلف تخصصاتهم. كان الأستاذ بوزياني رحمه الله يتعلق في علاقته مع طلبته يتميز بعلاقة طيبة جدا، فكانوا يحبونه بشكل كبير، فكان أستاذا مربيا عود طلبته على الاحترام وعلى عدم التطاول، وعلى الأخلاق الحسنة التي هي أساس العلم والتعليم.

على مستوى العلاقات مع الأساتذة داخل الشعبة، فقد كانت له علاقات ودية جدا، كانت معاشرته طيبة ومجالسته لهم طيبة جدا. لم يحدث أن دخل في خلاف ولو جزئي مع أحد زملائه، حتى أنه في الشعبة كان يلازم الأساتذة الباحثين المتخصصين سواء في التاريخ أو في غير التاريخ للاستفادة منهم، ومن خبرتهم، ومن أقدميتهم في مجال البحث العلمي إذا كانوا أكبر منه سنا، وأقدم منه في مجال البحث والتدريس. فبوزياني رحمه الله وهو في سن الأربعين، تميز على مستوى البحث العلمي بكونه أستاذ باحثا بما للكلمة من معنى، وكان مجدا في عمله، كان دائما يناقش باقي الزملاء فيما يتعلق بالقضايا التاريخية الكبرى، وكان يجالسهم ويناقشهم أبحاثه وأنشطته، فقد حدثنا زميلنا

الأستاذ حيمر جمال في الجلسة الأولى من هذا اللقاء عن بعض مما نشره وبعض ما كتبه، فقد كان أستاذا مساهما ومشاركا في التظاهرات العلمية سواء داخل الوطن أو خارجه.

إذن هذه كانت جزء من صفات الجليل بوزياني رحمه الله، ندعو له بالمغفرة والرحمة، ومن بين ما أتذكر للأستاذ بوزياني أنه ليس من أولئك الذين يحسون أن الحياة دائمة بل كل يعتبرها زائلة، وستنتهي في يوم من الأيام، حتى أنه قبل وفاة الأستاذ بوزياني وهو أستاذ عزيز علينا جميعا افتقدناه، ذهبنا لشركة تؤمن على الحياة، فقال لنا صاحب الشركة إن الموت يتم التعويض عليه بحسب الدرجات، فإن كان الموت عاديا فسيكون التعويض عاديا، وإذا كان عنيفا فسيكون التعويض قويا ومرتفعا، فكان رحمه الله يمزح في هذا الكلام حين قال عليك أن تختار موتك، وإذا أردت أن يكون تعويضك مرتفعا فعليك بالموت العنيف، وكنا نهزأ من هذا. وكان يعرف رحمه الله أنه سيموت في أجل قريب، كان يستخف بالحياة، فرحم الله الأستاذ قدور بوزياني ونتمنى أن تسير الشعبة على الخطى التي رسمها من علاقات ودية وطيبة بيننا، ونرجو للجميع دوام الصحة والعافية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شهادة باسم أساتذة كلية الآداب بمكناس : ألقاها الأستاذ سعيد الأيوبي:

كان رحمه الله ذكيا، فطنا لبيبا، ثاقب الرأي

بسم الله الرحمان الرحيم،

((إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نظرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم، عينا يشرب بها المقربون)). صدق الله العظيم.

اللهم اجعل فقيدنا قدور بوزياني من الأبرار. الذين وصفت حالهم عندك في هذه الآية الكريمة. كما أنشد قول أبي تمام :

هو البحر من أي النواحي أتيته   فلجته المعروف والجود ساحر
تعود بسط الكف حتى لو أنه   ثناء لقدر لم تجبه أنامله

وقال الصولي للقاسم بن إسماعيل: أما تسمع يا قاسم؟ قال : بلا والله يا سيدي، فقال الصولي: إنه اختم، وما استمتع بخاطره ولا نزح عني فكره حتى انقطع عمره. والنبغاء كما تؤكد القاعدة العلمية لا يعمرون طويلا، هذه إحدى سنن الكون، إذ النمو العقلي يقتات ويتغذى من العمر الزماني. وقد كان المشمول برحمته الواسعة قدور بوزياني ذكيا، فطنا لبيبا، ثاقب الرأي راجح العقل، سديد الفكر، دمث الأخلاق، خفيف الروح، سهل المخالقة، سهل المعاشرة. بهذه المعاني الإنسانية الرائعة الكثيرة التي حواها عقله وقلبه، ومدت يد المنون سهامها التي قصفته، وكأنها تروم الانتقام منه، فأثرت في أهله وأحبابه وزملائه حاجة تلح إلى رؤيته، ووجعا لا ينتهي لفراقه، عاصرته رحمه الله لأوقات قصيرة داخل الكلية وخارجها، فتنسمت منه رائحة الخلق الكريم،

ومروءة البدوي الصميم، وعزة نفس الشهم العظيم. لقد استعجل الدهر هزيمته، وأسقط خديجا لغير تمامه وهو ابن الأربعين، ولو تمهله الموت قليلا لنجابته.

وظهرت شواهد نبوغه سافرة تامة. ولكن يد المنون قد قصت جناحه مبكرا بعد أن تحدى المرض وقاومه في صمت وخشوع رهيبين، حتى انتهت به المغالبة إلى ميناء الموت، تجلل وجهه في الوحشة العميقة والصمت المصيب. أذكر أنه كلما التقيت به رحمه الله كانت الابتسامة الصادقة الصافية البريئة تملأ محياه، وألق النجابة والذكاء يشع من عينه، وعبارات التقدير والمحبة تنطلق من شفتيه. فها قد تكسرت مجاديف سفينة حياته الهادفة على شاطئ صخرة الموت العاتية. فمهما حاولنا أن نرم الجرح الغائر الذي أجدته فينا فراقه في مكابرة أبيه، فلن نستطيع أن نلجم أحاسيسنا، ونصادر فيض عيوننا وقلوبنا، ونصرخ صيحات الوجع واللهفة فينا، غير أن حسن الأحدوثة بنبل أخلاقه وعظيم مكارمه ونقاء سريرته وطويته يخفف عنا بعض ما نجده من وحشة فراقه. جعل الله روحه الطاهرة البريئة تسعد وتسرح بين تيجان السرور، وأكاليل الزهور، وباقات العطور وهالات النور، وكنوز اللآلئ المنثور، في فسيح جناته، وغفر له بمنه، وألهم ذويه الصبر والسلوان،وجعل في عقبه من ولده البركة والسداد من الرحمان، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

شهادة وحدة التكوين والبحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي: ألقاها رئيس الوحدة الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش

كان يبذر في وجدان طلبة الوحدة بذور حب البحث والتنقيب وروح النقد

بسم الله الرحمن الرحيم،

وبعد،،، لا يمكن للمرء أن يتحدث عن وحدة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي خلال الوسيط دون أن تنتصب أمامه قامة الأستاذ المرحوم قدور البوزياني، وبصماته الواضحة في إنجاح عملها التربوي والعلمي. ومهما حاولت أن أرسم صورة لإسهامه العلمي بهذه الوحدة فأنني أقف عاجزا عن استيفاء كافة جوانب شخصيته الغنية: أريحية الطبع، سماحة النفس، دماثة الخلق مع غزارة العلم، ونكران الذات، تواضع وعفة... فكر ثاقب، ورأي حصيف... أنعم الله على الفقيد بحكمة الإصغاء بدل الكلام، والتعالي عن السخائم، مع رشاقة النكتة، وطيب الخاطر. كان رحمه الله غيورا إلى حد الهوس على وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ملتزما بمبادئها ورؤيتها التاريخية، محتضنا لطلبة الوحدة ببهجته الابلونية، وبجديته التي لا تخبو... عشرات من الطلبة تدفقوا من تحت معطفه العلمي، يوجههم ويشرف عليهم، ويغدق عليهم بمعين علمه، ويجعلهم مواكبين لكل جديد.. كان يبذر في وجدانهم بذور حب البحث والتنقيب وروح النقد، ويعرفهم بآخر صيحات المناهج المعاصرة، وكيفية تشغيل آلياتها التحليلية وطرقها التأويلية...

فرحم الله تلك الروح العالمة، وأسكنها فسيح جنانه، ورزق أهل الفقيد الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

شهادة شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بمكناس ألقاها بالنيابة الأستاذ عبد اللطيف مومن :

نجم قد أفل

بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء المرسلين وعلى آله و صحبه وسلم تسليما،

وبعد :

ها نحن أمام نجم قد أفل، منذ سنوات كانت زهرات تتساقط في هذه الكلية العامرة، من الأستاذة المرحومة كفيتة ثم الأستاذ المرحوم عبد السلام محمدي، ثم الأستاذ المرحوم القادمي، ثم الأستاذ المرحوم بوشتى بوعسرية صديقي وعزيز وأثيري إلى قلبي، وختاما بأخينا وصديقنا المرحوم قدور بوزياني، هذه زهرات تتساقط لا نعبأ ونحن في زحمة الأيام وزحمة الحدثان تساقطها، قد نجهل قيمتها أيام حياتها فنخال عند مماتها ما فات منها، هذا أبشع أنواع نكران الجميل والشاعر يقول :

ما أراك طول العمر تندبني وفي حياتك ما زودتني زادي

هذا التكريم، وهذا التبجيل ينبغي أن يصبغ على الأساتذة أيام حيواتهم، أما بعد مماتهم- وذلك شيء قدر ومقدور لا مفر منه- أبشع أنواع نكران الجميل. فعسانا أن نتخذ من هذه الذكرى عبرة لتكريم الأساتذة في حياتهم الذين إنما يصدرون عن أرواحهم و تذوب نفوسهم وعقولهم ذوبانا في سبيل ترسيخ قيم المعرفة وقيم الأصالة وقيم الإنسانية وكل هاته الأشياء، وأنا كلمتي هذه باسم أساتذة شعبة اللغة العربية وكذا باسم شخصي المتواضع.

عرفت الأستاذ قدور بوزياني رحمه الله منذ عشرين سنة، أي منذ أن وطأت قدماه هذه الكلية، عرفناه شابا طموحا، أصيلا واثقا بنفسه، يتلمس

معالم خطاه بكل وضوح وجلاء، يحاول أن يسدي لطلبة الكلية ولزملائه ولأصدقائه كل ما يدخر من معارف. كان رحمه الله قد بدأت بوادر المرض تنتابه منذ سنوات طويلة... أذكر أننا التقينا ذات مرة صدفة في رحاب الخزانة الحسنية بالرباط وبالدرجة الأولى في سنة 1987 وكذلك 1988، كل منا يغني على ليلاه يوم ذاك - ولا أقول يبكي على ليلاه — فسألته في ماذا تشتغل، فقال لي إنه يشتغل في حقبة العلاقات التركية العثمانية مع المغرب في عهد الدولة السعدية، فكنت أقول له كم قضيت من السنوات، لا أذكر ربما قضى سنوات في تلك الحقبة، فقلت له طيب الآن وقد نضجت هاته الباكورة أو هاته الفاكهة، فما عليك إلا أن تتقدم بالعمل. فكان يقول لي لا والله لا أرضى بذلك، قلت لماذا، قال لي لو وجدت سبيلا لذهبت حتى لأسطنبول مركز الوثائق العثمانية هناك، بحثا وتقصيا عن الحقيقة لأن رائدي الأول هو الوصول إلى الحقيقة، وكان يقول لي لم أناقش موضوع دبلوم الدراسات العليا إلا بعد أن أكون راضيا عن نفسي.

فهو بالمقام الأول كان ينشد الرضا عن نفسه ولم يكن ينشد رضا الآخرين عنه مصداق لقول شاعر مغربي مات رحمه الله وهو محمد إقبال العروي :

و ما من كاتب إلا سيفنى ويبقى الدهر ما خطت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك يوم القيامة أن تراه

هذه هي حال أخينا المرحوم قدور بوزياني الذي اعتبط شابا صغير السن، فعلا لو أمد الله في عمره لأفادنا علما غزيرا وأفادنا معرفة جمّة، ولكن هذه حال الدنيا دائما تصيب في المقسم، تصيب أبنائنا البررة، تصيب الشباب الذي يمكن أن يبدع ويبتكر، وهذه إرادة الله تعالى، وفي الحقيقة نحن نتألم ألما عظيما لفقدان

هذا الشاب اليافع والذي في الحقيقة تخونني العبارات إن شئت التحدث عن مدى علاقتي به.

ومن بساطته أنه كان يدخل معي في مناقشات حول قضايا لغوية، نحن نعرف أن كثيرا من البحث التاريخي ليست له تلك الصياغة اللغوية المتينة أحيانا، لكن المرحوم لا يفتئ يحب الإطلاع على أسرار اللغة العربية.

نتمنى أخيرا له الرحمة الواسعة، وأتمنى من إخوانه خاصة في شعبة التاريخ أن يظلوا حريصين على الاعتناء بأسرته الصغيرة وكذا أسرته الكبيرة، وعسانا أن نتّعظ ونأخذ العبرة من هذه الذكرى حتى يستقيم أمرنا في المستقبل، فنبقى إخوانا متصافين متحابين، لا كدر ولا غش، ولا تملق ولا خداع فيما بيننا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شهادة شعبة الدراسات الإسلامية ألقاها الأستاذ عبد الحق حنشي :

رجل محب للعلم ومربي نموذجي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة السلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لعلّه إذا عرفنا إذا أثنى الناس على شخص، فذلك عربون على محبتهم له وعلى تقديرهم إياه، وهذه فضيلة طيبة مآلاتها طيبة في الدنيا وطيبة جليلة في الآخرة. يروي الإمام البخاري ومسلم عن أنس أن النبي (ص) مرّ بجنازة فأثنوا عليها خيرا، فقال (ص) وجبت، ومرّوا بجنازة أخرى فأثنوا عليها شرا، فقال (ص) كلمة واحدة وجبت. فسأله عمر وكان حاضرا، ما وجبت في الأولى وما وجبت في الثانية قال عليه الصلاة والسلام : ((الأول أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، والثاني أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض)).

الشهادات التي سمعناها في حق العزيز المرحوم قدور بوزياني دلالات على عمق وتأصل المحبة في قلوب الجميع، فقد كان رحمه الله ألوفا ودودا، طيب الكنف جميل المعشر، حسن الأخلاق كريم الشيم، وهي الشمائل و الفضائل التي تركت آثارها في نفوس الجميع، سيما وأن المعرفة بالأشخاص تتم من خلال الحياة إلفا واعتيادا، سلوكا ومعاملة وعشرة في جميع أوجهها، في الجامعة وخارج أسوار الجامعة، وهو ما عرفناه وألفناه في المرحوم، وهي المعايير التي أطلعت أغلب الأساتذة على الشمائل الطيبة والفضائل الكريمة والأخلاق الرفيعة والصفات النموذجية للمرحوم، وفق الله سبحانه وتعالى كثيرا منا لتمتين هذه المعرفة، ولا سيما في المنتديات العلمية والأنشطة الإشعاعية الثقافية التي كان المرحوم بوزياني شغوفا بها أشد الشغف، ولوعا بتنظيمها والمشاركة فيها، حضورا ومشاركة وكتابة وحوارا ومناقشة. وذلك ما عرفناه بمعية الأساتذة

الأفاضل من أعمدتهم المرحوم بوعسرية، وبعض من الإخوة الحضور، لا سيما في تنظيم أول ندوة مشتركة بين الشعبتين شعبة الدراسات الإسلامية وشعبة التاريخ، وهي المتعلقة بدراسة المدينة الإسلامية وعلاقتها بالمجال. كما شارك رحمه الله في أغلب التظاهرات الثقافية التي مثلت ضمنها شعبة التاريخ مجالا أرحب في الصياغة و المشاركة في الأنشطة الإشعاعية ولا سيما بين مرحلتي 1986و 1996. وكانت كليتنا خلال هاته الحقبة تمثل المرتبة الأولى على الصعيد الوطني في المشاركات الإشعاعية، أذكر أيضا من صفاته مشاركته النقابية الدؤوبة الدائمة الفاعلة العاقلة والمتوازنة في آن واحد، أضيف بذلك صفاته الجليلة على مستوى التدريس والمشاركة، هو أستاذ باحث، وهو أستاذ مبرّز بامتياز، يجدد في دروسه ويجدد في محاضراته، محب للعلم، علاوة على أنه مربي نموذجي. من صفاته أنه رحمه الله كان ألوفا ودودا، الشيء الذي جعل الناس يألفونه ويحبونه، وهاته الصفات نماذج للأخلاق الرفيعة في بعدها الشرعي لقوله (ص) : ((أقربكم مني مجالس وأدناكم إليّ يوم القيامة أحسنكم أخلاقا، الطيبون أكنافا، الذين يألفون و يألفون)) وكان رحمه الله يألف ويألف، وهو معروف بالتزامه الشديد وانفتاحه الفكري والاجتماعي المتوازن، إضافة إلى بشاشته وذكائه وسرعة بديهته، مع تميزه بخلال الصدق والمروءة وحسن الإنصات، وهي شمائل قلما تتوفر لشخص واحد، الشيء الذي يجعل تدخلاته صائبة حينما يتدخل وآراءه سديدة حينما يعرضها. إن الاسترسال في ذكر هاته الفضائل لأمر صعب، وأتوقف عند هذا الحد و ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يرحم الفقيد برحمته الواسعة وأن يجزيه أحسن الثواب، وأن يجعله رفقة النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يجعل قبره روضة من رياض الجنة، وأن يختم علينا جميعا بالصالحات، شكرا لكم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

شهادة باسم طلبة وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الاسلامي ونيابة عن كافة طلبة كلية آداب مكناس ألقاها الطالب الباحث حميد تيتاو :

استفدنا منه غاية الاستفادة من أجل أن تكون أبحاثنا في الدكتوراه في المستوى المطلوب

بسم الله الرحمن الرحيم،

الأساتذة الأفاضل، الحضور الكريم، أصالة عن نفسي وباسم زملائي في وحدة التاريخ الإقتصادي والاجتماعي للغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط، أتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إنجاح هذا الملتقى العلمي الرصين، فكرة وتنظيما وتفعيلا ومشاركة.

تكريما واعترافا لما قدمه أستاذ عزيز علينا جميعا، واحتفاء بذكرى روحه الطاهرة، اسمحوا لنا أن نعتبر أنفسنا أقرب من عرف الأستاذ المرحوم بوزياني عندما جلسنا منه مجلس الدرس والتعلم والتحصيل، وأن نعتبر أيضا أن ما نملكه من مادة علمية في تاريخ العثمانيين وتاريخ المغرب بوجه عام يرجع الفضل الكبير في تحصيلها للأستاذ المرحوم، كما لا يفوتنا الإقرار بأننا استفدنا منه الكثير، واستفدنا غاية الاستفادة على أن تكون أبحاثنا في الدكتوراه على المستوى المطلوب. هذا دون أن ننسى حواراتنا وسجالاتنا معه خارج حجرة الدرس.

فلكم منا كامل التقدير الاحترام والإمتنان لما أسداه لنا و لمن قبلنا من خدمات جليلة، تنم عن تواضعه وتمكنه العلمي، فالله نسأل أن يتغمده برحمته الواسعة، وأن يسكنه فسيح جنانه.

لو أن عمر آخر يعار... لو لحظة أغفلها من عمره مغامر بحار... لو أن الموت أمهلنا قليلا كنا التقيناك عمرا آخر... ونهلنا من ابتسامتك الكثير....، إنا لله وإنا إليه راجعون.

شهادة المكتب المحلي للنقابة الوطنية
للتعليم العالي بكلية الآداب بمكناس

ألقاها الأستاذ عبد الحميد العبدوني

رحيل قدور بوزياني بالنسبة لنا جميعا يعني فقدان مناضل عزيز

أيها السيدات والسادة:

من الصعب أن نجد لغة نستطيع أن تعبّر عن هذا الحزن الذي أصابنا. لم نستطيع أن نصدق أن اسما جديدا انضاف إلى لائحة المغادرين دون رجعة ، بوعسرية ، المحمدي ، كفيتة ، القادمي ، ثم قدور بوزياني رحمهم الله جميعا. حين نستحضر وجود قدور بوزياني في نقابتنا العتيدة ، في نقاشه وهدوئه وابتسامته ، يصعب علينا التصديق بأنه ودعنا الوداع الأخير .

نعم ... أيها السيدات والسادة ، شاءت الأقدار أن نلتقي اليوم من أجل تأبين صديقنا وزميلنا قدور بوزياني ، وكنا نرغب في أن يكون هذا اللقاء مناسبة لمطارحة ومدارسة قضية من القضايا التي تؤرق بالنا جميعا ، قضية لها علاقة بإشكالاتنا المعاصرة ..وما أكثرها ، لنسمع صوت قدور بجرأته ، وفصاحته ، وحكمته ، وتواضعه ، لكن لا مرد لقضاء الله . شاء الله أن يرحل قدور فأصابتنا الفاجعة ...رحيل قدور بوزياني بالنسبة لنا جميعا يعني فقدان مناضل عزيز و صديق حميم ، وأستاذ كبير ، وباحث متمرس .

نشأ المرحوم في وطاط الحاج ، وفيها تعلم الصبر، وتشرب لذة النضال .. رغم ظروفه العسيرة استطاع أن يكمل تعليمه الابتدائي والثانوي بوطاط

الحاج ويتابع تعليمه العالي بفاس والتحق بكلية الآداب بمكناس ، وفيها ناضل ضد الطرق البالية في التعليم ، وضد الانفراد في اتخاذ القرار ، وضد التعصب والعنف ، والمعرفة المطلقة ...ونذكر جميعا مناقشاته وتعقيباته الهادئة والرزينة التي تنم عن ذكاء نادر وأخلاق رفيعة. كان مناضلا صادقا يعمل من أجل تحقيق تطلعاتنا وآمالنا في غد أفضل، متصفا بنفاذ البصر وبعد النظر، لا يقبل رأيا بلا دليل، ولا يرضى بقول دون حجة ...ولعلنا جميعا نذكر تدخله في الاجتماع ما قبل الأخير الذي عقده المكتب المحلي للنقابة الوطنية للتعليم العالي بقاعة الأساتذة..

رحم الله الفقيد العزيز ، وأسكنه فسيح جنانه ، وألهمنا وذويه الصبر والسلوان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، والسلام عليكم .

La presse écrite au Maroc: un agent de mutation culturelle et politique (XIX – XX s.)

Jamaâ BAIDA
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Rabat

Introduction

La présence de la presse dans une société est en soi un signe révélateur de son évolution générale, particulièrement lorsque cette presse exprime librement une diversité d'opinions et joue, par cette action, un rôle positif dans le processus de la marche vers la modernité. Avant d'acquérir le droit de cité dans les pays occidentaux qui l'ont vu naître grâce aux progrès techniques, et avant de se hisser au statut prestigieux de « quatrième pouvoir », le journalisme a longtemps été décrié ; certains grands auteurs n'y ont vu qu'une basse littérature en quête de scandale. Ainsi Montesquieu qualifiait la presse de *« pâture des ignorants »*, tandis que Charles Baudelaire la considérait comme *« un tissu d'horreurs [...] une ivresse d'atrocité universelle »*[1]

La presse, produit de la civilisation occidentale, a fait son entrée dans le monde arabo- musulman assez tardivement. Ce fut d'abord quelques pas timides à Istanbul à la fin du XVIIIème siècle avec la parution de feuilles en langue française au service des négociants français, puis c'est en Egypte que fut inaugurée la presse en langue arabe, avec la naissance du *Tanbih* en 1800, comme l'une des conséquences de l'expédition de Bonaparte.

Quant au Maroc, l'arrivée de la presse et de l'imprimerie y était plus tardive encore. Cependant, une certaine élite *makhzénienne* n'ignorait pas tout à fait l'existence de la presse et son fonctionnement. Al Ghassani en a donné une brève description dès la fin du XVIIème siècle après sa mission en Espagne auprès du roi Carlos II (1690-1691) ; tandis que Mohammed Seffar et Driss al 'Amraoui, dans leurs relations de voyage en

---

[1]- Cité in Pierre Ripert- Dictionnaire des citations de langue française ; Maxi-Poche références, Paris, 1995.

France, respectivement en 1845-46 puis en 1860, ont été plus prolixes dans leur émerveillement par la presse et l'imprimerie[2]. Mais cette connaissance n'a jamais été suivie d'initiatives autochtones visant l'introduction et la diffusion des gazettes au sein de l'Empire chérifien.

Le temps de la suspicion

L'introduction de la presse au Maroc est étroitement liée aux convoitises coloniales européennes dans cette région du monde. Les premiers journaux ont vu le jour à Sabta dès les années vingt du XIXème siècle avec la naissance d'*El Libéral Africano* (mai 1820) et d'*El Eco Constitucional* (1822). Et lorsque Tétouan tomba sous l'occupation espagnole après la *Guerra de Africa*, elle vit à son tour la parution, en 1860, d' *El Eco de Tetuan* , puis d'*El Noticiero de Tetuan*. C'est d'ailleurs par ce contact conflictuel avec les Espagnols, aussi bien par les deux enclaves de Sabta et de Mélilla que par Tétouan, que le vocable « gazette » fit son entrée dans le lexique des lettrés marocains et dans les correspondances *makhzéniennes*.

Après Sebta, Mélilla et Tétouan, ce fut au tour de Tanger, surtout pendant les années quatre vingt au lendemain de la conférence de Madrid consacrée au Maroc, de voir une prolifération de feuilles de tous genres et de langues diverses, souvent subventionnées par les légations européennes accréditées dans la ville du Détroit : *Al-Moghreb al-Aksa*, *Le Réveil du Maroc*, *The Times of Morocco*, etc. Il s'ensuivit même une campagne de dénigrement tout azimut menée par des journaux à la fois contre le *Makhzen* et contre certaines représentations étrangères. La raison invoquée pour justifier les critiques acerbes contre les autorités marocaines était qu'il fallait leur imposer des « réformes » susceptibles de moderniser les structures de l'Etat et ouvrir le pays au commerce international. A ce propos, *Le Réveil du Maroc* écrivit en février 1885:

« Le Maroc ne cède que devant la force et ce n'est qu'en lui infligeant une leçon sévère à chaque infraction aux traités que l'on peut seulement l'engager à adopter des réformes »[3]

Le ton n'était pas plus modéré dans *Le Commerce au Maroc*, journal d'obédience allemande, qui écrivit en mars 1886 :

---

[2] - Jamaâ BAIDA- La presse marocaine d'expression française des origines à 1956 ; Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1996, p. 53-54.

[3]- *Le Réveil du Maroc*, 25 février 1885.

« L'intelligence des Arabes est assoupie par ce rêve fantasque qui naît de leur ébahissement fanatique ; or si nous devions attendre du gouvernement de l'Islam les avantages que réclame notre commerce, le temps s'écroulerait en agitant ses ailes monstrueuses sur cette contrée pour la faire disparaître dans un gouffre épouvantable d'où elle ne pourrait jamais se relever »[4]

Courroucé par des remontrances peu respectueuses des us et coutumes des Marocains, le *Makhzen* décréta l'interdiction de la presse tangéroise en juillet 1886 ; une décision qu'un journaliste espagnol a attribué aux « ennemis de la lumière »[5], sachant qu'elle avait la bénédiction de certains diplomates européens qui étaient eux-mêmes cloués au pilori. Même si l'initiative des autorités marocaines était demeurée lettres mortes, l'affaire des gazettes étrangères au Maroc a eu comme effet d'alimenter la suspicion d'une certaine élite marocaine à l'égard de la presse. Cette rancoeur devait s'amplifier au fur et à mesure que cette presse devenait, au grand jour, un instrument de « pénétration pacifique » au service de milieux coloniaux.

Ainsi, la presse devenait l'objet de méfiance de ceux qui parmi les Marocains y voyaient un outil de propagande européenne au service des appétits expansionnistes. C'est sous cet angle qu'il faudrait interpréter un jugement sévère à propos de la presse, que le vizir Mfaddel Gharrit attribua au Sultan Moulay Hassan en 1889 . Dans une métaphore, le travail des gazettes était assimilé à celui effectué par un bûcheron de nuit qui ramasse, pêle-mêle, le bois sec et le bois vert. Et puisque ce manque de discernement occasionne forcément des dommages, le Sultan était amené à considérer la presse comme une *bid'a*, c'est-à-dire une innovation jugée illicite et blâmée par la religion musulmane. C'est dans ce climat de suspicion qu'aurait circulé dans certains milieux marocains un pamphlet qui jetait à la vindicte publique les lecteurs téméraires de la presse ; il avait pour titre « *Ad-darb bi zaraouit 'ala ra's man ya qra' al gawazit'* »[6] (Le gourdin aux lecteurs des gazettes ! ».

La méfiance à l'égard de la presse, attribuée à la plus haute autorité religieuse et politique du pays, allait cependant s'estomper avec le temps puisque l'on vit le même Sultan recourir aux journaux pour consolider sa politique ou défendre l'intégrité de son royaume. Une sorte de « Bureau de Presse » avait même été créé au sein du palais pour décortiquer certains

---

4- *Le Commerce au Maroc*, 22 mars 1886.

5 - Isaac D. LAREDO- Memorias de un viejo tangerino ; C. Bermejo impresor, Madrid, 1935, p.247-249.

6- Direction des Archives Royales: Al-Wathaiq, recueil VII, 1989, p. 298, note 82.

périodiques étrangers et traduire à l'intention du souverain, ou des dignitaires du pays, les articles relatifs au Maroc et à d'autres contrées musulmanes. De leur côté, les grands lettrés du pays se montraient de plus en plus friands de la presse, essentiellement la presse arabe du Moyen-Orient. Ainsi, l'historien Naciri, l'auteur de *l'Istiqsa*, lisait des journaux d'Egypte et de Syrie, et se faisait traduire des feuilles d'Espagne et de France[7].

La presse : un catalyseur de réformes

Durant la première décennie du XX^{ème} siècle, avec l'internationalisation de ce que les milieux diplomatiques appelaient communément la question marocaine, la presse étrangère au Maroc, essentiellement d'obédience française ou espagnole, s'était mobilisée plus que jamais pour servir d'instrument de « pénétration pacifique ». Les commentaires de cette presse soulignaient avec insistance les déficits du Maroc en matières de libéralisme économique et commercial, d'infrastructures administratives modernes, de libertés publiques, etc. La tenue de la conférence d'Algésiras en 1906 a rendu plus véhémentes les interpellations à l'adresse du *Makhzen* qui était publiquement accusé d'incompétence et de léthargie. A cette offensive une élite marocaine éclairée avait répliqué par divers projets de réformes, dont un projet de constitution publié dans quatre livraisons du journal tangérois *Lissan ul Maghrib* en octobre/novembre 1908. Il n'est pas question dans le présent propos de nous étendre sur ces initiatives[8], mais retenons seulement qu'elles ont souvent constitué des réactions aux critiques de la presse et que parmi elles il y eut celles dont les auteurs avaient choisi les journaux comme tribunes pour faire entendre leurs voix.

Le sujet des réformes a dominé le contenu de la presse étrangère éditée au Maroc et une élite marocaine a réagi en proposant des contre-projets censés, selon elle, réformer le pays tout en lui évitant un « diktat » colonial. Cet échange a créé une dynamique réformiste à laquelle la presse a servi de tribune et de catalyseur. La discussion au sujet des réformes, notamment sur les colonnes des journaux, a été l'occasion

---

[7] - NACIRI- *kitab al Istiqsa...*, Dar al Kitab, Casablanca, 1954, tome I, p. 13

[8]- Cf. Jamaâ BAIDA- « La pensée réformiste au Maroc à la veille du Protectorat » ; in *Hespéris-Tamuda*, vol. XXXIX, fascicule 2, 2001, p. 49-69.

Jamaâ BAIDA- « Rasail maftuha ila sultanain Al Mawla Abdelaziz wa Al Mawla Abdelhafid » (Lettres ouvertes aux sultans Moulay Abdelaziz et Moulay Abdelhafid) ; in *Mélanges offerts au Professeur Brahim Boutaleb* ; Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 2001, p. 493 - 529.

d'aborder des thèmes jusqu'alors rarement débattus en public. D'ailleurs certains journaux, comme *Lissan ul Maghrb* ont annoncé dès leur création que leur raison d'être était de susciter des réformes au sein de la société et de l'Etat :

« *Puisque la presse est l'interprète de l'opinion et le reflet de la situation générale du pays, c'est une obligation pour le Lissan de parler des affaires publiques et de désigner l'un après l'autre les secteurs qui nécessitent des réformes, comme l'enseignement, l'administration, l'armée, la justice, les finances [...]* »[9]

Le traitement de toutes ces questions en langue arabe, dans des journaux comme *Essaada*, *Assabah*, *Al-Istiqlal*, *Lissan ul Maghrib*, *Al haqq*..., a propagé un vocabulaire quasiment nouveau pour le lexique marocain. Les auteurs de cette nouveauté sont des journalistes en provenance du Moyen-Orient, souvent porteurs des idéaux, ou au moins de la terminologie, de la *Nahda* arabe (Renaissance), voire de la Révolution française: Wadi' Karam, Cheikh Ni'mat Allah Dahadah, Arthur et Faraj Allah Nemour, etc. Leur apport eut un impact indéniable sur l'enrichissement du lexique culturel et politique marocain.

Pour illustrer cette tendance réformiste portée par la presse, signalons, à titre indicatif, quelques thèmes abondamment traités dans les journaux du Maroc à la veille du Protectorat :

- Le régime constitutionnel.
- L'enseignement.
- L'émancipation de la femme.
- L'abolition de l'esclavage.
- Le régime carcéral.

1- Le régime constitutionnel

A maintes reprises, la presse s'était efforcée de démontrer la compatibilité du régime constitutionnel avec les préceptes de l'Islam. Les arguments étaient puisés dans les textes fondateurs, le Coran et la Sunna, mais également dans les expériences de certains pays musulmans tels que l'Empire ottoman et la Perse[10]. L'occasion était souvent bonne, lorsque la presse évoquait la situation en Turquie ou en Iran, de ne point se contenter d'informer les lecteurs, mais également de suggérer au *Makhzen* la conduite à suivre. D'ailleurs quelques fois, le message était direct et

---

9- *Lissan ul-Maghrib*, n° 1, 8 février 1907.

10 - Cf. « La liberté au royaume de Perse : instauration d'un conseil pour les représentants de la nation » ; Editorial d'*Essaada*, 27 septembre 1906, p. 1-2)
- « Le régime constitutionnel en Islam » ; Editorial d'*Essaada*, 11 août 1908, p. 1-2)

accusateur. A ce propos, *Es-Saada* a écrit dans son article consacré à l'expérience constitutionnelle en Iran :

« *Nous espérons informer les lecteurs sur toutes les réformes entreprises au-delà de cette constitution [...]. Nous espérons [également] que les nobles personnalités du Makhzen lisent attentivement ces paroles pour réaliser que seul notre cher Maroc demeure dans le sous-développement et la négligence . Il existe une grande différence entre le Parlement et le Conseil des Uléma-s*[11] »

Par ailleurs, avant de publier son fameux projet de constitution, *Lissan ul Maghrib* a consacré bien des articles aux réformes politiques des Jeunes Turcs, pour ouvrir ensuite un débat « fictif » entre les partisans du régime constitutionnel au Maroc et ceux qui jugeaient que le peuple n'était pas assez mûr pour franchir ce pas décisif vers la modernité[12].

2- L'enseignement

L'enseignement étant de l'avis des réformistes de tout bord le meilleur moyen de préparer une société à de profondes mutations, il était tout naturellement un thème de prédilection dans les journaux qui revendiquaient un changement. Sans relâche, il était demandé au pouvoir central de moderniser ce secteur par l'adoption d'un enseignement ouvert sur les sciences et répondant aux exigences de l'heure. Dans une série de six articles intitulés « L'éveil des nations : causes, conséquences et destins », Faraj Allah Nemour a expliqué les fondements du progrès chez différentes nations, tout en privilégiant le rôle l'éducation et de l'enseignement.

Le projet de constitution publié par son journal en 1908 stipule que l'enseignement primaire devait être obligatoire. Son article 83 prévoyait la subdivision de l'enseignement public, sous les auspices des ministères de l'enseignement et des Habous, en trois niveaux :
- Le primaire : obligatoire pour filles et garçon à partir de l'âge de six ans.
- Le secondaire (pour garçons seulement)
- Le supérieur: Réforme de l'université Al-Qaraouiyyine par l'introduction des sciences modernes dans ses programmes.

Seule la méritocratie devrait prévaloir dans le recrutement des enseignants, sans aucune distinction de nationalité ou même de confession. Et parallèlement à l'enseignement public, pourraient être

---

[11] - Allusion au conseil des Notables (*Majliss al A'yane*) instauré par Moulay Abdelaziz en 1905.

[12]- Lissan ul Maghrib, 13 septembre 1908, p. 3 ; 27 septembre 1908, p. 1

créées des écoles privées à l'initiative de Marocains ou des ressortissants étrangers. Mais il semble bien que le Makhzen avait d'autres priorités que l'enseignement ; c'est pourquoi *Lissan ul-Maghrib* l'apostropha sans ménagement : « Est-ce vraiment trop une seule école primaire pour des millions de Marocains ? »[13]

3- L'émancipation de la femme

Même si ce projet de constitution n'a reconnu aux filles le droit de scolarisation qu'au niveau du primaire, force est de constater que la discussion du statut de la femme était une première au Maroc en ce début du XXème siècle. La presse avait, bien entendu, informé ses lecteurs sur la prodigieuse évolution de la femme à travers le monde[14], mais c'était l'exemple de la femme ottomane qui était mis en exergue afin de bien démontrer que cette réforme avait également droit de cité en terre d'Islam[15].

4- L'abolition de l'esclavage

L'abolition de l'esclavage, dont le caractère était surtout domestique, n'était pas encore officiellement à l'ordre du jour dans le Maroc précolonial[16]. A toutes les interventions de sociétés antiesclavagistes et philanthropiques européennes, le *Makhzen* s'était toujours contenté d'opposer la nécessité de ne point bouleverser la *qaïda* (la tradition), surtout lorsque celle-ci avait, à tort ou à raison, quelque vague fondement dans la Religion. Ceci n'empêcha pas la presse diffusée au Maroc de mettre l'accent sur la nécessité absolue de reconsidérer cette pratique avilissante pour les hommes et les femmes, et qui était tout à fait contraire à l'esprit des réformes dans lequel résidait le salut du pays. La vente des esclaves sur des marchés publics ou clandestinement était stigmatisée et les autorités étaient invitées à sévir contre les esclavagistes ; car seule une telle

---

13 - Lissan ul-Maghrib, 17 janvier 1909, p. 2

14 - « La femme et son statut dans la société », éditorial de Farajallah Nemour, *Lissa ul- Maghrib*, 15 novembre 1908, p. 1-2.

15- « La femme ottomane et son influence sur la renaissance des libéraux » ; *Essaâda*, 13 novembre 1908, p.1

- « Les femmes turques », Lissan ul-Maghrib, 22 novembre 1908, p. 4

16 - Plus tard, pour des raisons sociopolitiques, le Protectorat français n'a pas non plus fait montre d'une volonté énergique pour abolir au Maroc une pratique pourtant considérée en France, dès 1848, comme contraire à l'ordre public.

initiative pouvait, selon cette presse, inscrire le Maroc dans le processus de la modernité[17].

5- Le régime carcéral

Dès la fin du XIXème siècle, la presse de Tanger n'a cessé d'évoquer la situation dans les prisons marocaines, dénonçant l'arbitraire dont auraient été victimes bon nombre de « sujets » de Sa Majesté, selon les caprices de hauts dignitaires ou de simples chefs locaux. Pour *Lissan ul-Maghrib*, au moins le tiers des personnes incarcérées au Maroc étaient innocentes et ne méritaient pas plus la prison que les plaignants (27 mars 1908, p. 1). Et pour abolir le règne de l'arbitraire, *Essaada* a adressé une lettre ouverte au sultan Abdelhafid pour lui rappeler que les prisons marocaines étaient devenues, par la négligence des responsables, « des cimetières pour les vivants, un camp pour les innocents, sans inspection, sans justice, sans clémence et sans équité »[18]

Remarquons, au terme de ce bref survol de quelques thèmes développés par la presse, que le droit de cité n'était plus contesté à la presse au Maroc à la veille du Protectorat. Un défenseur de la presse écrivit de Fès en 1910 :

> « *Les journaux sont des fleuves dont les sources sont les nations.*
> *Les nations sont des corps dont les âmes sont les journaux.*
> *Et comme les corps sont morts lorsque les âmes les ont quitté,*
> *De la même façon, il n'y a plus de fleuves lorsque leurs sources sont taries* ».

Cependant, la presse demeurait encore un luxe et son influence était réduite aux principaux centres urbains (Tanger, Fès, Casablanca) ; par conséquent ses chances d'influencer la masse de la population dans les tribus étaient assez minimes. Les infrastructures archaïques du pays, dans bien des secteurs, étaient autant d'entraves à la circulation de l'information, à la prééminence du journal et à l'amorce de vraies mutations sous l'impact de la presse. Jusqu'en 1912, nous avons plutôt assisté, après quelques résistances, à l'initiation et à la familiarisation d'une certaine élite urbaine, officielle et non officielle, avec ce qu'on appelait déjà sous d'autres cieux « Sa Majesté la presse » ou « le quatrième

---

17 - Cf. « Les esclavagistes et la vente des esclaves », (Essaada, 26 avril 1910, p. 2-3) - « La vente des esclave », (Essaada, 22 novembre 1910)

18 - *Essada*, 10 mai 1910, p. 1

pouvoir ». Mais, même à cette échelle, sa présence était un signe de l'évolution culturelle de la société marocaine.

Pendant la première décennie du XXème siècle, le développement de la presse au Maroc allait de pair avec la parution de plusieurs projets réformistes tels que ceux présentés à Moulay Abdelaziz par Abdallah Bensaïd ou par Ali Zniber[19].

Sous le régime du Protectorat

L'avènement du Protectorat annonce, bon gré mal gré, des bouleversements en introduisant des infrastructures compatibles avec une meilleure circulation de l'information. L'afflux des colons et des capitaux a ouvert la voie à la naissance d'une presse coloniale matériellement prospère et politiquement ambitieuse. Le résident général Lyautey jugea prudent de juguler cet élan par la promulgation du dahir du 27 avril 1914 comme première réglementation de la presse en terre marocaine. Cette loi, tout en érigeant des gardes fous jugés nécessaires dans contexte conflictuel, avait carrément disqualifié les autochtones de l'activité journalistique libre. C'est qu'à la Résidence générale, bon nombre de hauts fonctionnaires pensaient que l'élite marocaine risquait de faire mauvais usage de la liberté de la presse ; c'est ce qu'explicite Eugène Margot, officier des Affaires Indigènes et directeur du journal résidentiel *Essaada*, lors d'une conférence en 1927 :

> « *La presse [...] est une arme dangereuse dans les mains des gens inexpérimentés. Bienfaisante à divers titres chez les nations civilisées, elle convient peu aux peuples qui en sont encore au premier stade de leur évolution, surtout aux peuples arabes et berbères si facilement impressionnables* »[20]

Cette exclusion, au lieu d'éloigner les autochtone du *fruit interdit*, n'a fait qu'aiguiser leur appétit pour le journalisme ; comme en témoigne les nombreuses feuilles clandestines publiées par les étudiants de la Qaraouiyyine pendant les années vingt : *Al-Islam*, *Oum Al-Banine*, *Al-Madrasa*, *As-Saïf al-Qati'*, etc ; autant de titres qui ont fait écho au courant *salafiste* en vogue au Moyen-Orient. En outre, le spectacle donné au Maroc par les polémiques des différents journaux partisans français a tellement

---

19- Cf. Jamaâ BAIDA- « La pensée réformiste au Maroc à la veille du Protectorat » ; in *Hespéris-Tamuda*, vol. XXXIX, fascicule 2, 2001, p. 49-69.

20- MARGOT, La presse arabe en 1927 ; Publication de la Résidence Générale au Maroc, s.l.n.d. [Rabat, 1927 ?], p. 52.

avivé le désir de quelques nationalistes marocains de faire usage de la presse pour faire aboutir leurs revendications. Et lorsque une marge de liberté leur a enfin été offerte pendant les années trente pour une courte période, les différentes feuilles nationalistes devinrent de réelles tribunes pour des projets réformistes de tout genre, avec un impact indéniable sur les lecteurs. L'essentiel du *corpus* de ces revendications a d'ailleurs été regroupé, en 1934, pour être présenté aux autorités sous forme d'un cahier de doléances intitulé : *Plan de Réformes marocaines*. L'un des auteurs de ce mémoire, Mohammed ben Hassan El-Ouazzani, ayant reçu en France une formation en sciences politiques et au journalisme, excella particulièrement dans l'utilisation de la presse comme agent de mutation culturelle et politique. Son journal *Eddifa'* a publié, les 7 et 14 septembre 1937, une version arabe de la déclaration des droits de l'Homme et du citoyen à laquelle avait adhéré son parti *Al-Haraka al Qawmiyya*. Désormais, malgré l'épée de Damoclès représentée par la censure, la presse était devenue, dans sa diversité, un élément non négligeable dans le paysage culturel et politique du pays; une situation qui en a fait un agent de mutation de la société marocaine.